سلسلة الآثار الكاملة - ٣-

مسؤولية المرأة

الشهيد الدكتور علي شريعتي

ترجمة

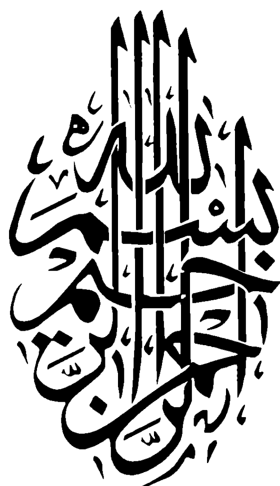
خليل الهنداوي

حقّقه وحرّره للنشر

محمد حسين بزي

دار الأمير

مسؤولية المرأة


بسم الله الرحمن الرحيم

إسم الكتـاب : مسؤولية المراة

إسم المؤلـف : د. علي شريعتي

إسم المترجم : خليل الهنداوي

تنضيد وإخراج: زهرين

تصميم الغلاف : بشير محمد

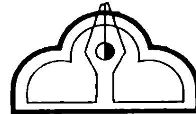
الترقيم الدولي : ISBN 978-9953-494-20-3

الطبعة الأولى : ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٦م

الطبعة الثانية : ١٤٢٨ هـ ـ ٢٠٠٧ م
(بعد تدمير الدار خلال حرب تموز ٢٠٠٦ م)

الناشـــر : دار الأمير للثقافة والعلوم ش.م.م

التوزيع في العراق:
دار الباقر ـ النجف الاشرف هـ :07801263579



دار الأمير للثقافة والعلوم
مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر ـ بيروت ـ لبنان

تلفاكس: 49 64 27 1 961+
ص.ب: 113/5551 الحمرا ـ بيروت ـ لبنان

Website: //http:/www.daralameer.com
E-mall: daralameer@daralameer.com



مؤسسة نشر اثار
الدكتور علي شريعتي

تلفاكس: 2232729 21 98+
ص.ب: 6516-19395 طهران
www.shariati.com

وتستمر دار الأمير ...

إذا كانت مسؤولية المثقف تجاه أمته وتحديات لحظتها التاريخية هي الهم والرسالة التي حملها علي شريعتي، فإن نشر فكر الوعي الحضاري بدوره مسؤولية، إذ كيف يصل هذا الفكر للناس دون ناشر مسؤول؛ يعطيه العناية ويكفل أن يظل هذا الزاد الثقافي حاضراً في الوعي؛ متاحاً للأجيال لتنهل منه في صياغتها لرؤى التجديد والنهضة وتستثمره في حركة التغيير وصناعة المستقبل.

وقد وعت دار الأمير هذه المسؤولية منذ تأسيسها عام ١٩٩١م، وحملتها بأمانة، وتحملت تبعاتها المادية والمعنوية في مواجهة حسابات السوق وفكر الجمود، ورغم الدمار الكُلّي الذي لحق بالدار في حرب تموز ٢٠٠٦م، والذي كان أول ضحاياها كتب علي شريعتي التي أحرقتها صواريخ الهمجية الصهيونية؛ حين دكّت مقرّ دار الأمير في بيروت ومعرض الدار في بنت جبيل، فإن إرادة البقاء وعزيمة الإنتصار بقيت متوهجة، وها هي دار الأمير تستأنف دورها ونضالها بعد أشهرٍ معدودةٍ من العدوان، وتقدم من جديد فكر شريعتي في إخراج متميز، وتنهض من بين الركام مستعيدة دورها المسؤول في نشر ثقافة العودة إلى الذات، والنهضة، والمقاومة في مسيرة الفلاح التي شعارها: **إلهي علمني كيف أحيا . . ، أمّا كيف أموت، فإني سأعرفه**. والحمد لله الذي نصر عبده.

محمد حسين بزي

مقدمة الناشر

غريب هذا الرجل، غربة الإذكاء في بريق المعنى، عصيّ المشهد حيّاً، وفارسه بعد الرحيل...، في حومة الإبصار؛ أوار ناره لم تخبُ، وفي لجّة الحطام لم يعتره وجل، ونور قلمه ما زال يرصف منارات فيها فيء ونور..

علي شريعتي..

ذاك المدى المقهور بآفاق إصطنعها مرابو (الدين) وصنّاع التعصّب، وأضجعوها من كل الألوان خيطاً، وحسب الحاجة.. لكنك لم تبالِ في دنياهم.. ورحلت كما الزهاد الواثقون.. رحلت بهدوء تأُزُّ دنياهم كأنك إتحاد المعنى والمبنى في آن.. ولأن الواثقين بالله بالموت يحيّون، وما كان لله ينمو.

ولأن كتب ومحاضرات ونضال وحياة شريعتي كانت لله وفي سبيل الله، خاب ظنّ الأدعياء، وانتشرت إنتشار النور في

الصباح، وصباح الأحرار لم يؤرقه يوماً ليل العبيد.

فهذه كتبك ترجمت لأكثر من خمسة عشر لغة حيّة.. حتى أنها ترجمت للهجات محلية بين مستضعفي الهند وفقراء أندونيسيا وغيرها.. وها هي تُنشر في العربية التي أحببت وتمنّيت في وصاياك التي لم تفارق ذاكرتنا بعد، تمنيت نشرها بكل وعي وإبصار، وها هي الناس تتلقّفها بكل الحب والثناء.. ورغم كل الصعاب..

من الوفاء لشريعتي وقرائه أن نكمل ما بدأنا في تعريب الأعمال الكاملة لشريعتي، وهذا هو الجزء التاسع عشر ـ **مسؤولية المرأة** ـ نضعه بين أيدي القراء ونحتسبه في صحيفة أعمالنا يوم نلقاه سبحانه، فله الحمد، والسلام.

محمد حسين بزي

بيروت في ٣/ ٦/ ٢٠٠٥م

المرأة بين الإسلام والتقاليد

كان من المقرر أن يأخذ بزمام الحديث من هذه الليلة سماحة السيد الخامنئي[(١)]، وهو رجل مثقف وله باع طويل في هذا المضمار، ولكن لم تتوفر له ـ وللأسف ـ الفرصة لمشاركته في هذه الندوة. وكان بودّي أن أمهد لحديثه بمقدّمة تتضمّن اقتراحاتٍ عمليةً مفادَها أن الحديث عن حقوق المرأة وشخصيتها ورأي الإسلام فيها شيء، والعمل به على أساس القيم التي ترى أن الإسلام يؤمن بها، والحقوق التي يعترف بها، وتطبيق ذلك في نظامنا الإجتماعي وفي مجمل حياتنا، شيء آخر. بيد أننا غالباً ما نكتفي بطروحات من قبيل القول بأن الإسلام يؤمن إيماناً عميقاً بحقوق الإنسان أو حقوق المرأة، أو أنه يشتمل على كذا حقوق تقدّمية. ولكن من المؤسف أن إنسان اليوم ومسلمي العصر لا يجنون أية فائدة من هذه القيم والحقوق. ومن الطبيعي أن

---

(١) السيد علي الخامنئي: ولي الفقيه في إيران حالياً بعد رحيل الإمام الخميني، وهذه إشارة يُفهم منها مدى العلاقة التي كانت تربط الدكتور شريعتي بالسيد الخامنئي. «الناشر».

الاستفادة تتحقق عندما نطبّق عملياً ما حصلنا عليه من معلومات في هذه المجالات. إنَّ الكثير من الناس يعرفون نظرياً طبيعة المفاهيم التي طرحها الإسلام للحياة وللمجتمع وللعلاقات الإجتماعية أو حقوق المرأة والأولاد والأسرة، إلا أنهم يسيرون عملياً وفقاً لتقاليد بالية لا صلة لها بالإسلام، ولا جرأة لهم على تغيير نمط حياتهم وصياغتها وفقاً للرؤية الإسلامية الأصيلة. ولهذا السبب تجدنا نلفُّ وندورُ في حلقة كلام فارغ.

يجب علينا الأخذ عملياً بأي بحث نظري نطرحه عن الإسلام واستكماله بمقترحات عملية تصب في إطار تطبيقه في واقع الحياة؛ كأن نشرح على سبيل المثال، أساليب التطبيق العملي لهذه المُثل والقيم والحقوق في الظروف الراهنة. وهذا ما يجب أن يكون منطلقاً لنا للتساؤل ـ بعد طرح كل مسألة ـ عن السبل الكفيلة بتطبيقها عملياً.

كان بودّي تناول هذه القضية بالبحث، ولكن مثل هذا البحث لا تتم فائدته إلا إذا عُرض كمقدمة لأطروحة علمية أو بحث علمي. ويبدو لي أن الإقتصار على طرح بضعة مقترحات عملية والإهتمام بالجوانب العلمية وحدها لا يلبّي في هذه الليلة حاجة وطموح الحاضرين؛ ولهذا أجد نفسي مرغماً على الانصراف عن الموضوع الذي هيّأته في ذهني لعرضه في هذا المجلس من جهة، ولأنني ـ من جهة أخرى ـ لا أملك الجدارة ولا الإستعداد الكافيين لطرح هذه المسألة عملياً، خاصة في هذه الليلة المباركة

التي اجتمع فيها ـ على حب فاطمة وذكراها وحياتها ومماتها وشخصيتها ورسالتها ـ حشد من محبّي أهل بيتها والمؤمنين بنهجها، آملين أن يسمعوا حديثاً في تكريم ذكراها.

سبق لي أن طرحت في مثل هذه الليلة من العام الماضي كل ما أعرفه في هذا المجال، ولعل أغلبكم قد سمعه، ثم تبعته بإضافات وصغتهُ على شكل دراسة تحليلية لحياة السيّدة فاطمة عليها السلام ودورها الإجتماعي نشرتها حسينية الإرشاد تحت عنوان «فاطمة هي فاطمة»[1].

أما ما أريد التحدث عنه الليلة فلا يدخل في إطار البحث الفني العلمي الدقيق، ولا هو مشروع مقترحات عملية، وإنما هو بحث عام شامل لمجمل الهموم والقضايا المطروحة على بساط البحث في حياتنا المعاصرة، وهو من نسق الموضوعات التي أثرتُها في مقدمة كتاب «فاطمة هي فاطمة».

حقوق المرأة ودورها

تمثل قضية حقوق ودور المرأة على مدى التاريخ مسألة علمية وفكرية إتخذت إزاءها المذاهب والمدارس الفلسفية والنظم الإجتماعية المختلفة مواقف متباينة. ففي العصر الحديث؛ وفي

(١) أصدرت دار الأمير للثقافة والعلوم ـ بيروت ـ النص الكامل لكتاب فاطمة هي فاطمة، ترجمة هاجر القحطاني، الطبعة الأولى عام ٢٠٠٣م. «الناشر».

القرون: الثامن عشر والتاسع عشر والعشرين، ومن بعد الحرب العالمية الثانية خاصة، طرحت قضية الحقوق الإجتماعية والخصائص الإنسانية للمرأة على بساط البحث في الأوساط العلمية وعلى صعيد الأحداث الإجتماعية والسياسية للعالم، على شكل واقعة مؤثّرة وأحدثت هزّة روحية عنيفة وأزمة ثورية، حتى أنَّ المجتمعات المحافظة والمجتمعات التاريخية والدينية، سواء في الشرق أم في الغرب، والدينية منها أم القومية، والبدوية منها أم الحضرية، المسلمة أو غيرها، تأثرت بهذه الأفكار والتيارات، بل وتأثّرت أيضاً حتى بالوقائع الإجتماعية الحديثة.

ومما يؤسف له إن هذه الأزمة بدأت في الغرب وحظيت بدعم وتأييد القوى العظمى المتسلطة على القرن العشرين على نحو ساعدها على تخطّي جميع الحدود والتفشّي في المجتمعات البشرية كافة والتسلل إلى جميع الأرجاء، وحتّى في الأوساط الدينية والمحافظة. وقَلّما تجد مجتمعاً ـ حتى من المجتمعات التقليدية والثقافية والتاريخية والدينية، استطاع الصّمود أمام هذا السيل الجارف.

غالباً ما جوبهت موجة التجديد الخاصّة هذه، والّتي جاءت تحت شعار تحرير المرأة، بمواقف تستند إلى تقاليد بالية أو على شكل مقاومة ومعارضة تتَّسم بالتعصب الأعمى، وهذا ما جعلها عاجزة عن الصمود أَمام رياح هذا التغيير أو تحجيم شدّة هذا الزحف الكاسح.

أما الفئة الثانية التي تشكَّل الأكثرية ويتألف أفرادها من المتعلمين الجدد وأشباه المثقفين، فقد رحبوا أشد ترحيب بهذه الأزمة التي عصفت بالمجتمعات المتخلّفة، وغدوا من أقوى عوامل نشر وتكريس هذا التيار الهدَّام. وعلى هذا الأساس أصبحت المجتمعات المحافظة والدينية ومن جملتها مجتمعاتنا الإسلامية، وبشكل تلقائي، مؤيّداً وداعماً ومستقبلاً لهذه الهجمة التجديدية الرامية إلى تحرير المرأة ـ بالمعنى الذي أعلنه الغرب ـ ومن قِبل كلا الإتجاهين؛ فالإتجاه العصري المثقف في المجتمعات الإسلامية أو غيرها في الشرق، وهو الإتجاه الذي يُعتبر رمزاً للمدنية الحديثة، استقبل هذا التيار باعتباره تقدماً ومناراً؛ وكذلك الإتجاهات المحافظة والتقليدية من خلال أساليب المقاومة البدائية والتصدَّي المتعجرف الذي صدر عنها، ساهمت على نحو غير مباشر في تمهيد الأرضية في هذه المجتمعات لقبول هذه الفكرة. وهذه سنّة شاملة، ومثلها في ذلك كمادة البنزين إذا أريقت في موضع وشبّت فيها النار، كلما حاول بعض السذّج إطفاءها بأساليب متسرعة وغير مدروسة زادت اشتعالاً.

فاطمة القدوة الدائمة

وهذا هو السبب الذي جعل التصدي البدائي للغرب غالباً ما يكون مدعاة لقبول تلك الأفكار في المجتمع، وإيجاد عُقد وردود فعل لدى أبنائه يسفر عنها الترحيب بما يدعو إليه الغرب. ونادراً ما نجحت مجتمعات في الوقوف بجدارة أَمام الدعوة الغربية

الجديدة، وإبداء رد الفعل المناسب إزاءها، وتسنى لها اختيار نمط حياتها عن وعي وإرادة.

إنَّ أحد العوامل الكبرى القادرة على تحصين المجتمعات الشرقية ضد الهجمة الفكرية والثقافية الغربية، وهي الهجمة التي تعتبر نموذج المرأة الحديثة من جملة سماتها، هو وجود الثقافة الغنية والتاريخ الحافل بالأمجاد والتجارب والمعتقدات والمُثُل السامية، وكذلك توفُّر الحقوق الإنسانية الراقية وخاصّة عند القدوات الإنسانية الكاملة في دين وتاريخ هذه الاقوام والمجتمعات.

ومن حُسن الحظ أَن مجتمعاتنا الإسلامية ـ وإن لم تنجح في صد الهجمة الإستعمارية الغربية بوعي ـ تملك من حيث الطاقات والمستلزمات الثقافية تاريخاً وتراثاً وديناً كاملاً يمكن من خلال إحيائه والتعويل عليه وبعث القيم الإنسانية الموجودة فيه، وفي عموم تاريخها وتراثها، تحصين الجيل الجديد ومنحه القدرة على الصمود بوجه الغرب. وفي هذا المجال الذي يدور محور حديثنا حوله يتضح أن أمضى سلاح يمكن حمله لمحاربة القيم الغربية وأفضل وسيلة لزرع روح المقاومة في نفوس أبناء الجيل الجديد في المجتمعات الإسلامية ضد الدعوة الغربية، يتلخص في وجود نماذج ممتازة وقدوات نبيلة وحيّة في تاريخ ودين الإسلام. ولو أن مثل هذه الشخصيات عُرفت حق معرفتها وتم تقديم صورة دقيقة عنها، وأعيدت قراءة حقيقتها على نحو علمي سليم ورؤية واعية

وجديدة، مع إحياء أسمائها وذكراها وعرض شخصيتها ورسالتها مرّة أخرى، لشعر الجيل الجديد والمرأة الجديدة حينذاك بعدم ضرورة الإستجابة للدعوات الغربية المنحرفة الوافدة تحت مسميات الحداثة، في سبيل التحرر من القيم البالية والتقاليد الرجعية البائدة، بل لرأت لنفسها قدوات متميّزة خليقة بترسّم خطاها لبناء ذاتها. وتقع في قمة تلك القدوات وأرفع وأسمى مواقعها شخصية فاطمة الزهراء عليها السلام.

إن القضية المهمّة التي نوظّف جهودنا في سبيلها هي اثبات أنَّ كل الشؤون المتعلّقة بالمرأة وكل المسائل المتعلّقة بالعلم وكل شؤون المجتمع، ونمط الحياة، والعلاقات الطبقية، والرؤية العلمية، والنظرة الكونية، موجودة في الإسلام. وقصارى جهدنا هو العثور على السُّبل الكفيلة بفهم هذه القيم وهذه الدروس، وكيفية تطبيقها والاستفادة منها على الصعيد العملي، من أجل حل مشاكلنا وتلبية متطلبات عصرنا ووضع حدّ للصراعات الفكرية المحتدمة لدينا، واشباع الحاجات الملحّة التي نستشعرها اليوم.

ايضاً فاطمة

إذاً، القضية الأساسية تتلخص في كيفية الفهم؛ فالشيعة الذين يتمسكون بأهل البيت عليهم السلام بقوّة وصراحة ووضوح، يعتبرونهم مظهراً للقيم النبيلة السامية، على اعتبار أن مُثلهم وقيمهم لا تختص بقوم دون غيرهم ولا تنحصر بنا وحدنا، وإنما يستطيع

المسلمون كافة استشرافها بكل جلاء اليوم ـ بعد أن ولّى عصر الإعلام المسموم الذي كانت تبثُّه أجهزة الخلافة ـ ويعترفون بصراحة أن اسمى تلك القدوات قد نشأت في دار صغيرة، ولكنها مع صغر حجمها تضاهي التاريخ كلّه، بل ويعترف كل من يؤمن بالقيم السامية والإنسانية، بصلاحية هذه الشخصيات لاتخاذها قدوات في شتى الآفاق وفي الشخصيات البارعة التي ترعرعت في هذا البيت. فهذه القيم أسمى وأنبل من القيم الفئوية والتاريخية والقومية الخاصّة؛ فهي قيم أصيلة تجاوزت حدود التاريخ والنزعات الفئوية الضيّقة.

وعلى هذا الاساس فكل من يحمل نزعة إنسانية ينظر إلى أهل البيت عليهم السلام بعين التبجيل والتقديس، وكل من له معرفة بالقيم الإنسانية، وكل من يتمسك بما ينبغي أن يتمسك به الإنسان المثقف، يعترف ويتمسك بالقيم التي طرحتها هذه الأسرة في ميدان التاريخ البشري. أما عن كيفية الفهم، وكيفية استقاء العبر والدروس من سيرة حياة فاطمة مثلاً ومن أسلوب حياتها، ومن دورها الإجتماعي والفكري والديني؛ فهذه قضية ذات أهمية، حيث يجب أن تنصبَّ جميع جهود المثقف الملتزم في هذا المجتمع على الفهم الصحيح للثقافة الشيعية وللمذهب الشيعي وعلى الوعي الناضج لتاريخ الإسلام ودين الإسلام؛ لأن الفهم الصحيح مفتاح تجارتنا جميعاً. ومن جملة ما ينبغي فهمه على نحو صحيح هو فاطمة عليها السلام.

أما ما سبقت الإشارة إليه من أن قضية المرأة قد أثيرت في الغرب بعد الحرب العالمية الثانية كأهم قضية واتخذت طابعاً أكثر حساسية من أي وقت مضى، فذلك يُعزى إلى أن الحرب العالمية الثانية قضت على العلاقات الأُسرية (وأحد أسباب ذلك هو الحرب العالمية الثانية ذاتها)؛ إذ إن هذه الحرب قوّضت جميع التقاليد المعهودة والقيم الدينية والعادات والأخلاق والمُثل المعنوية الإجتماعية التي كانت سائدة هناك، حيث أدت الطبيعة العدوانية للحرب إلى تصاعد وتيرة العنف والقسوة والجريمة والاعتداء والقتل، كما كان لها من الناحية الفكرية والأخلاقية تأثير بالغ في الانحراف المفاجئ الذي ظهر على جيل ما بعد الحرب، بحيث أَن الغرب ما زال يشعر، وبعد مضي ربع قرن[1] على ترك الحرب بتأثيراتها المقيتة في روح وفكر بل وحتى في فن وفلسفة اليوم. فالأشخاص الذين شاهدوا قبل الحرب العالمية الثانية، ألمانيا وفرنسا بل وحتّى أمريكا التي كانت بعيدة عن ويلاتها، يشعرون بعمق التغيير الذي طرأ خلال هذه الفترة ويبدو لهم وكأن الأوضاع هناك قد مضت عليها بضعة قرون؛ إذ انهار كل شيء فجأة خلال جيل واحد.

ويتضح من هذا أَن إحدى الإفرازات الطبيعية التي أسفرت عنها الانحرافات الناجمة عن الحرب، تجسدت في انهيار القيم

(١) يرجى الالتفات إلى أن تاريخ هذه المحاضرات ـ كما يتبيّن من سياق النص ـ يعود إلى مطلع السبعينيات. (المترجم).

الأخلاقية التي كانت تحملها المرأة على الدوام.

وأما قبل ذلك، فقد كان الغرب يخوض صراعاً فلسفياً وفكرياً وإجتماعياً وإنتاجياً وحضارياً وثقافياً شاملاً ضد مظاهر القرون الوسطى؛ أي ضد الدّين الذي كانت تدعو إليه الكنيسة في القرون الوسطى متمثلاً في المذهب الكاثوليكي، وهاجم بشكل تلقائي جميع الحدود والقيود والقيم الأخلاقية والفكرية والعقائدية التي كانت الكنيسة تدافع عنها وتدعمها باسم الدين، إلى أن قضى عليها قضاءً مبرماً. ومن جملة الثوابت التي حرصت الكنيسة على الدفاع عنها باسم الدين، وكان الدِّين بمثابة الحارس المستأمن عليها هي قضية حقوق وقيم المرأة وشخصيتها المعنوية والإجتماعية والإنسانية التي كثيراً ما كانت تمازجها قيود وتقاليد فيها جور كبير على المرأة.

غلبة الثقافة البرجوازية

ومن بعد عصر النهضة وفي أعقاب تنامي الطبقة البرجوازية، تغلبت الثقافة البرجوازية؛ بما تعنيه من نزعة الحرية الفردية، على الكنيسة. وبهذا الانتصار الساحق الذي اجتاح السيادة الروحية والحقوقية والأخلاقية للكنيسة والدين، إنهارت بشكل تلقائي هذه القاعدة التي طالها الهجوم البرجوازي ذاك، وانهارت على أثر ذلك جميع القيم المنحرفة وحتّى التقاليد الإنسانية الإيجابية منها والسلبية المتعلّقة بالمرأة، وكانت تحظى من قبل بالحماية

باعتبارها مَعلماً من معالم الدين؛ وطرحت في أعقاب ذلك على الفور فكرة الحرية الجنسية. ولمّا رأت المرأة أن شعار الحرية الجنسية يحطم جميع الأغلال التي كانت تكبّلها، رحّبت بها أشد ترحيب إلى أن دخلت برمّتها في إطار البحث العلمي.

وكما أشرت في الدرس الأول[١] من تاريخ الأديان[٢].

وإذا لمسنا اليوم وجود معارضة باسم العلم ضد الدين والقيم الأخلاقية فإن هذه المعارضة غير نابعة من العلم نفسه، وإنما البرجوازية هي الصائغ والصانع لوثن العلم، وهي التي أخرجته على هيئة عجل السامري؛ وهو عجل ذهبي له خُوار، مثلما كانت الإقطاعية في القرون الوسطى هي التي تشيع وتدعم وتبرر القيم الإجتماعية ـ الأخلاقية الإقطاعية للطبقات النبيلة وتسمّيها باسم الدين وباسم المسيحية، إذ لم تكن هناك ديانة مسيحية لا في الوقت الذي كانت تدافع عنها النزعة الإقطاعية ولا في الوقت الذي يتعرض فيه الدِّين للنقد باسم العلم؛ فالذي

---

(١) تقوم دار الأمير حالياً بتعريب هذا الكتاب الواقع في ألف صفحة تقريباً تمهيداً لنشره. «الناشر».

(٢) تقوم دار الأمير حالياً بتعريب هذا الكتاب الواقع في ألف صفحة تقريباً تمهيداً لنشره. «الناشر». ، أن ما طرح في العالم الحديث ضد الدين باسم العلم وتحت شعار الرؤية العلمية والنظرية العلمية، ما هو في الواقع إلا رؤية برجوازية. وعلى العكس من المزاعم المطروحة اليوم، فإنَّ العلم الذي كان في خدمة الكنيسة لم يتحرر بعد القرون الوسطى، وإنما تحرر من قيد الكنيسة فحسب، ونما في ظل البرجوازية وأصبحت له السيادة المطلقة في العصر الراهن.

كان هناك هو النظام الإقطاعي، والذي ظهر هنا هو النظام البرجوازي (المثقفون الذين يؤمنون بأن التغييرات الإجتماعية مردّها إلى الاقتصاد وإلى البنية المادية الإجتماعية، يتقبلون ويفضلون هذا المنطق على غيره)، إلى أن جاء فرويد[١] ووضع أُسس المذهب العلمي الجنسي الذي يقول بأصالة الجنس.

البرجوازية المنحطّة

إن الطبقة البرجوازية طبقة منحطّة أساساً، على العكس من الطبقة الاقطاعية التي تعتبر مناهضة للإنسانية، لكنها في الوقت ذاته تكرّس القيم السامية والنُبل والشرف. وعلى الرغم من أن هذه القيم الأخلاقية منحرفة أيضاً، إلا أن البرجوازية ذات نظرة منحطة ودنيئة لا تستشعر القيم الأخلاقية السامية، ولا تؤمن سوى بالقيم المادية التافهة. ومعنى هذا أن العالم الذي يفكّر في ظل الحكم البرجوازي وتنامي النزعة البرجوازية ويحقق في هذا المضمار تحقيقاً علمياً، حينما يخوض في الشؤون الإقتصادية، ينظر إلى جميع القيم الثقافية والفضائل المعنوية والتضحيات الإنسانية والنبوغ والبطولة والشهادة والإيثار والنضال والمشاعر والعواطف والفنون والآداب، نظرة مادية مجردة قائمة على أُسس إقتصادية بحتة. وإذا ما خاض في علم النَّفس ودراسة

---

(١) فرويد: هو أحد هذه العجول البرجوازية إلا أن الخوار الذي يظهر منه يعود إلى النزعة التحررية البرجوازية.

طبائع الإنسان نراه يعتبر جميع أبعاد ومظاهر وانعكاسات الروح الإنسانية العميقة الزاخرة بالأسرار، وهو ما يسمّيه الدَّين باسم الروح الإلهية، والإستعداد الغيبي والإلهي، إنعكاساً لعُقَد جنسية مختلفة مكبوتة، ويصف النُّبوغ كحالة مقاربة للجنون، ويصور الجهد والمثابرة والصمود والسعي الحثيث وكأنه اطلاق لعقال العقد الجنسية الحبيسة، ويفسر المشاعر الإنسانية الشفافة كمداعبة الأم لطفلها وعبادة الإنسان لخالقه، في ضوء العلاقات الجنسية.

فرويد والمرأة

التقيت ذات يوم بأستاذ أمريكي قدم إلى مشهد لإعداد رسالة دكتوراه في علم الإجتماع الثقافي؛ كان يجيد الفارسية إجادة تامّة، وخصص رسالته لدراسة آداب اللغة الفارسية ويميل إلى العرفان الإيراني إلى حد بعيد، ولكنه كان أكثر ما يعوّل في دراسته على حافظ الشيرازي[١]، فسألته: ولماذا لا تعنى بدراسة المولوي (جلال الدين الرومي)[٢] وهو الأستاذ الأكبر للجميع؟ فأجاب: أن مولوي كان شاذاً جنسياً! فسألته: وأي شذوذ تعني؟ قال: كان شاذاً جنسياً في علاقته مع شمس التبريزي. وهذا ما

---

(١) حافظ الشيرازي (ت١٣٨٩): شاعر «عرفاني» فارسي له «ديوان حافظ».
(٢) جلال الدين الرومي (١٢٠٧ ـ ١٢٧٣) شاعر فارسي من كبار «العرفاء» صاحب الطريقة المولوية.

أدركته من خلال أشعاره ومن خلال الأمثال التي يضربها والناي، وقصة الناي. واتضح لي من كلام هذا الأستاذ أنه يفسر هذه التشبيهات في ضوء نظرية تفسير الأحلام التي طرحها فرويد[١].

لقد لخَّص فرويد في الرؤيا البرجوازية الجديدة جميع الأخلاق والفضائل وكل المظاهر النبيلة المغروسة في الروح الإنسانية بشيء واحد سمّاه «الواقعية» وهو لا يعرّف هذه الواقعية من وجهة نظر البرجوازية، بل يعرّفها من وجهة نظر العالم والفيلسوف وعالم النفس والخبير بالإنسان.

لقد تحوّلت كل هذه الأمور إلى أدوات بيد هذه الطبقة التي يتلخّص الأنسان ـ حسب رأيها ـ بحيوان جنسي وحيوان مادّي. فالبرجوازية مَسخت كل شيء وجعلت من نفسها بديلاً عن الأديان والفلسفات والثقافات والقيم الإنسانية، وانتهجت منهجاً واحداً وابتنت معبداً وبشّرت بنبي واحد لأبناء العصر البائسين، والكل يجب أن يجعلوا من أنفسهم ضحية له. ونبي البرجوازية هذا هو فرويد، ودينه الجنس، ومعبده الفرويدية، وأول ضحية نحرت على عتبة هذا المعبد هي القيم الإنسانية للمرأة.

---

(١) فرويد (سيغمنت) ١٨٥٦ ـ ١٩٣٩: طبيب نمساوي، مؤسس علم التحليل النفسي. درس الدوافع والعواطف اللاشعورية والعوامل الجنسية لا سيما في ضوء الطفولة. والإشارة هنا إلى كتابه «تفسير الأحلام» «الناشر».

الشرق والإستعمار الغربي

نحن في الشرق كثيراً ما نتحدث عن الإستعمار الغربي، إلا أن هذا الأمر بحاجة إلى شيء من التوضيح؛ فالإستعمار الغربي لا يعني أن الغرب إستعمر الشرق واستغله، وإنما هناك طبقة عالمية استغلت الشرق والغرب معاً. ولو كان لديَّ مُتّسع من الوقت لبيّنتُ كيف مَسخت هذه الطبقة المتسلطة الشعوبَ الأوروبية وسخّرتها، أكثر مما فعلت مع الشعوب الشرقية. وكثيراً ما تستخدم هذه القوّة المهيمنة على العالم شتّى الأساليب ضد البلدان الشرقية وشعوب الشرق وشبّان البلاد الإسلامية من أجل إلهائهم في قضايا جانبية، وإثارات تافهة وشؤون داخلية وإشاعات وتفرقة وسوء ظن لينشغلوا في ما بينهم ويغفلوا عنها. كما أن هذه الطبقة تمارس في الغرب نفسه آلاف الحِيَل والجرائم لإستعباد الشباب الأوروبي والسيطرة عليه، تفوق في بشاعتها الجرائم التي ترتكبها في الشرق باسم الإستعمار. فبالرغم مما تملكه أجهزة التجسس العالمية من تكنولوجيا متطورة قادرة حتى على رصد بعوضة في الجو، نرى أطنان المخدرات تُنتج وتنساب بحُريّة من الشرق إلى الغرب، وتباع هناك بتدبير منظّمات عالمية كبرى لها في كل أرجاء العالم طائرات خاصة، ومصانع وموانئ وسفن ودوائر مركزية. وإذا كانت المخابرات العالمية في أمريكا وأوروبا وأماكن أخرى

عاجزة عن كشف وضبط هذه المواد، فذلك يعود إلى أن هذه البضائع لا تتيح للجيل المثقف الواعي في أوروبا نفسها فهم طبيعة القوى المتسلطة على مصير عالم اليوم؛ وهي القوى التي تستغل الشرق والغرب على حد سواء. غاية الأمر أننا نتحدث عموماً عن علاقة الغرب بالشرق، وإلا فالإنسان سواء في الشرق أم في الغرب أصبح ضحية لمآرب وأطماع هذه القوّة.

تخدير العقول

إن أكبر المنتجات الفكرية والإجتماعية والإقتصادية والأخلاقية التي أوجدتها هذه القوّة لتكون بديلاً عن جميع القيم والمُثل والحريات الأخرى هي النزعة الجنسية التي ابتدعها فرويد. ولهذا السبب كانت السمة العامّة التي طبعت الفن العالمي وخاصة السينما[١] في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية تتلخص في عنصرين هما:

١ ـ العنف.

---

(١) الأفلام هي واحدة من أبرز مظاهر إرتباط الفن بالرأسمالية الغربية؛ لأنها لا تستطيع الاستمرار والديمومة بدون رأس المال. فالرسام مثلاً يستطيع حتى وإن كان صعلوكاً أن يخلق آثاراً رائعة في فن الرسم. بينما منتج الأفلام لا بد أن يتوفر لديه رأسمال بعدّة ملايين أو عدّة مليارات من الدولارات. وهذا ما جعل هذا الفن بالذات في خدمة الرأسمالية تلقائياً. ويمكن من خلال دراسة هذه الظاهرة معرفة مدى مقدرة هذه السلطة على التحكم بالإنسان عن طريق الفن.

٢ ـ الجنس.

وهاتان السمتان كلتاهما نذير حرب. ومعنى هذا أن صناعة السينما لم تأت عفوياً على يد بضعة مخرجين أو كُتّاب سيناريو، بل هناك أشخاص من أكفأ علماء الإجتماع وأبرع المختصين بعلم النفس يتعاونون مع هذه السلطة العالمية لتخدير عقول بني الإنسان، مستفيدين في هذا المجال من أفضل وأرقى الأساليب الفنية الإعلامية في العالم، ألا وهي الأفلام لهدم جميع القِيم والأديان ليحل محلها دين واحد فقط صنعوه هم بأنفسهم، وهو الفرويدية.

والأدهى من كل ذلك هو أن أشباه العلماء من الدرجة الثالثة والرابعة في بلدان العالم المصنّفة ضمن الدرجات الثالثة والرابعة، توهموا أن الفرويدية علم عصري حقاً، وأن اكتشافات العلوم الحديثة تؤيد حقاً وتثبت صحة نظرية فرويد. فجعلوا من أنفسهم عملاء مجّانيين لهذه السلطة وأخذوا يروّجون لها باسم الثقافة وباسم علم النفس الحديث، وجعل بعض المثقفين من أنفسهم أدوات إعلامية مجانية في خدمة هذه السلطة بين الأجيال الجديدة في بلدانهم. وما أتعس المثقفين والمفكرين الذين يكرسون أنفسهم لخدمة التسلط الرأسمالي العالمي تبرعاً لوجه الله! بلا أجر، ويضحون من أجلها زاعمين أنهم يخدمون بذلك الإنسان والحرية والعلم!.

إن هيمنة هذه السلطة العالمية توجب سحق الشرق والغرب كليهما؛ سواءً بواسطة المخدرات أم بواسطة الفرويدية، ولا فرق في ذلك بين الاثنين؛ لأن الجيل الشاب بما أنّه شاب ولم يكن قد ذاب بعد في بوتقة الثقافات المنحرفة، وبما أنه إنسان وما زالت الروح الإنسانية نابضة في أعماقه، يجب أن لا يتنبه إلى مصيره. ولكي لا يتنبّه فلا بدّ من استخدام أي مخدر كان، سواء في قالب العلم، أم في هيئة الرياضة، أم الآداب أم التاريخ، وسواء بأساليب تقليدية أم بأساليب دينية، ويكفي استخدام أي أسلوب ممكن في سبيل إلهائه وإقصائه عن ساحة الوعي. ولا شك في أن أفضل سبل التخدير هي السبل العلمية والفكرية، وأمضاها أثراً هي الدعوة الفرويدية إنطلاقاً من وجود أرضية لها في المجتمع وبين الشباب خاصة، وبسبب ما تتصف به من منطق علمي وحديث ومقبول. كما أن أكبر ضحايا هذه المدرسة هو جيل الشباب. وهذا هو السبب الداعي لتسخير كافة الطاقات الفكرية والبشرية والفنية والإجتماعية والسياسية والمالية لترسيخها. ومن هنا نلاحظ مدى سرعة انتشارها واستشرائها في كل أرجاء العالم.

إغتيال المرأة باسم الدفاع عنها

هناك عامل آخر في العالم يدعم هذه السلطة ويقدّم لها أفضل عون. ففي الوقت الذي تدعو فيه الفرويدية الجيل

الشاب، وخاصة الفتاة للتحرر والإنطلاق والاعتقاد بأصالة النزعة الجنسية، هناك في الوقت ذاته، فئة تتناغم معها في مسارها هذا وتهيّئ الأجواء لقبول هذه الدعوة أكثر مما يفعله أقرب المقربين إليها، وتلك الفئة هي الجماعة التي تكافح هذه الفكرة بأساليب جاهلة وساذجة، وتحاول صيانة ذاتها ضد هذه الموجة استناداً إلى تقاليد رجعية ومنحرفة وبعيدة عن الفكر والروح الإنسانية، وهو ما يؤدّي بالنتيجة إلى خلق عُقَد لدى قطاع واسع من أبناء المجتمع.

ولكن كيف تتعاون هذه الفئة مع هذه الدعوة؟ تتعاون معها عن طريق الإستهانة بالجيل الشاب وزرع الشكوك والعقد في نفوس أبنائه، وخاصة في نفس المرأة التي أضحت اليوم فريسة لهذا الصيّاد العالمي الكبير. فهو حينما يدعو المرأة إلى الخروج من بيتها، يساعده هذا الذي يبدو وكأنه عدو له في الظاهر من خلال حرمان المرأة من حقوقها الإنسانية والدينية وتكبيلها بالقيود والأغلال، مما يدفعها إلى الإنطلاق خارج البيت وتلبية دعوته واللجوء إليه. وهذا أفضل معين له في العالم كلّه. وقد أشارت الإحصائيات إلى أن الدعوة إلى النزعة الفرويدية أحرزت في البلدان والمجتمعات المحافظة ـ حيث تعاني فيها المرأة حرماناً أكثر ـ نجاحاً يفوق ما أحرزته في أماكن أخرى. ولا شك في أن السبيل الموصل إلى مكافحة هذا الوباء الخطير

لا يتم بواسطة التعصب المقيت وتكبيل المرأة بقيود وأغلال تعود إلى تقاليد بالية. وإنما السبيل إلى ذلك يتحقق فقط من خلال إعطاء المرأة حقوقها الإنسانية والإسلامية.

إذا منحنا المرأة حقوقها الإنسانية والإسلامية نكون قد أعددنا أفضل عنصر قادر على مجابهة هذا الهجوم، وإذا منعناها حقوقها نكون قدّمنا أجلّ خدمة لهذه الدعوة المشؤومة، ونكون قد أخرجناها من هذا الطريق إلى الطريق الآخر الذي تزينه لها هذه الدعوة.

المثقف الحديث، والأصولي المحافظ

البحث الأساسي الذي كثيراً ما يختلط في أذهاننا هو الفرز بين قضيّتين إحداهما بعيدة عن الأخرى، إذ إننا يجب أن نفرّق بين الدين والتقاليد. وهما قضيتان طالما حصل بينهما تداخل على امتداد التاريخ؛ اذ غالباً ما ينجم عن امتزاج العقائد بالأذواق والميول الخاصّة، ظهور مجموعة من المشاعر والعلاقات الإجتماعية والحقوقية التي تأخذ على مرّ الزمن طابعاً قدسياً. فكثيراً ما تتداخل الحقوق والقيم والأحكام الإسلامية في شتى الميادين كالاقتصاد، والإجتماع، والمرأة، والرجل، والأسرة، بالقيم والعادات والتقاليد الإجتماعية والقومية التي تتبلور في المجتمع على مر الزمن، في حين هي مجرد تقاليد

قومية وسنن بالية لا صلة لها بالدين. وكثيراً ما يكون التعصب سبباً للدفاع عن هذا المزيج المتداخل.

وهكذا يجد المثقف الذي يروم الانعتاق من قيد التقاليد والعادات البالية والمنحرفة، نفسه في مجابهة مع مزيج متداخل من الدّين والتقاليد، فيضطر إلى العمل في سبيل التخلّص منهما كليهما. ولهذا نجد البعض يدافع عن التقاليد البالية بدلاً من الدفاع عن الدين، فيما نجد البعض الآخر يحارب القيم الإسلامية السامية في الوقت نفسه الذي يحارب فيه التقاليد البالية. ويُعزى سبب ذلك إلى عدم قدرة الجانبين؛ المثقف الحديث، والأصولي المحافظ، على التمييز بين الدين والتقاليد الموروثة.

بين الدين والتقاليد

ولكن ما هو السبب الذي يدعونا للتمييز بينهما؟ من الطبيعي أن سبب ذلك يعود إلى أننا مسلمون، ونؤمن أن الأحكام والقوانين والحقوق التي جاء بها الإسلام تنسجم إنسجاماً تامّاً مع الفطرة والقوانين الطبيعية، وهما من النواميس الثابتة التي لا تتغير. وعلى هذا الأساس فإن الأحكام والقوانين التي تُصاغ وتتبلور وفقاً لنواميس الخلقة العامة لا تتغير ولا تبلى. ومعنى هذا أن هذه القيم لا تبلى.

أما التقاليد الإجتماعية فهي إفراز لنظام الإنتاج والإستهلاك، وللنظام الثقافي الحديث والنظام الإجتماعي. وحينما تتغير دورة هذا النظام وتتبدل، تتحول تلك التقاليد إلى تقاليد قديمة وبالية ومنحطّة، وتتخذ طابعاً رجعياً يحول دون الرقي والتقدّم، وحينها يصبح الدين، الذي هو ظاهرة حيّة وخالدة وقادرة على مسايرة متطلبات العصر ـ فيما إذا انصهر في قالب التقاليد الجامدة البالية المنحطّة ـ عاجزاً عن أداء دوره الفاعل في حياة أتباعه والمؤمنين به، ولا قدرة لديه على صيانة ذاته من خطر هجوم العالم وحركته، وإظهار ما يتسم به من فاعلية وتأثير وحيوية على مر العصور والأجيال.

إن المهمة الثقافية الكبرى التي تقع على عاتق المثقف الواعي العارف بالإسلام والتاريخ والتقاليد والزمان، هي استخلاص الإسلام بصفته ديناً حياً وخالداً من ركام التقاليد البالية التي لا صلة له بها، وإنما هي من نتاج الحياة الإجتماعية لشعب أو قوم ما. والقوالب التقليدية الجامدة هي التي ينبغي تحطيمها وصياغة قوالب جديدة بدلاً منها تنسجم مع روح ومتطلبات العصر. أما الإسلام، هذا الدين الخالد والمتكامل، فيجب الحفاظ عليه لما فيه من قدرة على تلبية متطلبات كل عصر وزمان.

من فاطمة إلى زينب

وأقول، من باب التجربة الحسية لا التحقيق العلمي، إن أكثر الرؤى الثقافية تقدميّة وثوريّة، لو عرضت عليها القيم الإسلامية نقية خالصة من أيَّة تقاليد ونعرات قومية ومؤثرات موروثة، لكانت أسرع من غيرها انصياعاً وانقياداً لها.

لو أن شخصية فاطمة صورت على حقيقتها التي كانت عليها، وعلى النحو الذي كانت تفكر فيه، وتتحدث فيه، وتعيش وفقاً له، وكيف كانت تؤدي دورها في المسجد وفي المجتمع وفي البيت؛ إذ كان لها دور في المجابهة الإجتماعية يختلف عن دورها في البيت، وكان لها في تربية الأولاد دور آخر خلاق ومبدع، لو تم تصوير كل آفاق حياتها هذه وتعريفها للجيل الناشئ، لاتخذها كل مسلم، بل وكل إنسان وفيّ للقيم الإنسانية ومؤمن بالحرية الحقيقية للرجل وللمرأة، كأفضل قدوة وأسوة يمكن السير على خطاها في عالم اليوم.

لقد رأيت بنفسي مثل هذه المواقف؛ رأيت أشخاصاً مجردين من المشاعر الدينية، حتّى أن مجتمعاتهم الدينية لا تعتبرهم أشخاصاً متديّنين، وحتى الخارجين منهم عن الدين، عندما يقفون على صورة صحيحة لواحد من أهل بيت الرسول ﷺ يذعنون لها إذعاناً تاماً. وهذا دليل على أنهم أحياء حقّاً.

حينما نقول أن الإسلام حيّ؛ فهو حيّ بصفته مجموعة من الأفكار والمعتقدات، كما أنه حيّ بأحكامه وقواعده الإجتماعية، وهو حيّ أيضاً بشخصياته المثالية التي صاغها وقدّمها لبني الإنسان.

كل مجتمع بشري ـ وبغض النظر عن طبيعة علاقاته الإنتاجية، وضمن أي نظام إجتماعي يعيش، وبقطع النظر عن مستواه الثقافي ـ حين يطلع على الصورة الجميلة للحسين بن علي، يرى فيه أفضل إنسان خليق بالثناء وجدير بأن يقتفي المرء خُطاه على الدوام. وكل امرأة ـ في أي شكل كانت وفي أي نظام ومهما كانت العقيدة الدينية والإجتماعية التي تؤمن بها ـ تؤمن بالقيم الخالدة للمرأة في صورتها المثالية، تعترف بزينب في كربلاء، وفي بلاط يزيد، وفي قافلة السبايا، وفي تلك الفترة المريرة العصيبة من بعد شهادة الحسين، كمظهر للقيادة الإجتماعية والإنسانية للمرأة. فأهل البيت أحياء، وهم تجسيد للإسلام. ويجب أن يبقوا أحياءً على الدوام لكل نظام ومجتمع. فالحياة هنا معناها القدرة على التأثير، والقدرة على الهداية، والوقوف كمعالم على الطريق ليهتدي بهم أبناء البشرية في أية أُمّة كانوا وفي أي عصر وفي أي مكان.

جاهلية منحطّة باسم الدين

ولكن من المؤسف أننا مزجنا بين التقاليد وبين الدَّين، وأختلطت العادات الإجتماعية بالشريعة ـ بما تتصف به إحداهما من خلود والأخرى من تغيّر؛ إذ إن إحداهما خالدة على مر العصور، والأخرى إرث لنظام إجتماعي وطني أو قومي خاص. إحداهما وحي وإلهام، والأخرى ناجمة عن العلاقات الإجتماعية والإقتصادية. لقد امتزجت هاتان الظاهرتان ببعضهما، وانصهرتا في قالب حياة قومية موروثة جاهلية منحطّة تستهوي الجهلة، وحظيت بالدفاع عنها باسم الدّين. ولهذا فمن الطبيعي أن يهرب المثقف ـ الذي يرى المرأة تعاني كل هذا الحرمان وكل هذه الحقوق المسحوقة المهدورة، ويرى من جهة أخرى الجانب المعارض لها يبالغ في سلب هذه الحقوق ـ بإتجاه الجانب الذي يضمن له مصالحه الطبقية ويلبي حاجاته الجنسية والإجتماعية؛ وذلك لعدم قدرته على الفصل والتمييز بين هاتين الظاهرتين؛ أي ظاهرة الدين، وظاهرة العادات والتقاليد الإجتماعية الموروثة.

فإذا كان علماء الدين في مجتمع ما عاجزين عن الفصل بين الدين وبين التقاليد الوطنية والقومية، هل يرتجى من الشباب المثقف بالثقافة الجديدة الفصل بين الدين وبين النظم والعادات

الإجتماعية البالية عند محاربتهم لكل قديم؟ وإذا لم تبادر الشخصيات العلمية والأوساط الدينية المطلّعة على حقائق الدين في البلاد الإسلامية إلى انجاز مثل هذه المهمّة، فمن ذا الذي يبادر إليها؟

أَمَة الله..!

نقل لنا أحد المعلمين ذات مرّة قصة تحدَّث فيها عن القديم والجديد ومزج بين الإسلام والتقاليد البالية والتعصب، وطرح تلك القصّة على اعتبار أن لها صلة بالإسلام، قال: حينما ظهرت قضية منح الجنسية للمواطنين جاء إلى دارنا الشخص المكلف باصدار الجنسية لنا وقال أنه مكلف بهذه المهمّة ويجب أن نتعاون معه ونقدم له المعلومات المطلوبة، وأول ما سألني عن اسمي، فقلت له: اسمي كذا. قال: وما هو لقبك؟ فسألته: وما معنى اللقب؟ قال: لا بدّ وأن يكون لكل عائلة لقب. وبعد محاولات وجدال طويل توصلنا إلى تسمية معيّنة. وبعدها سألني: ما اسم أمك؟ فقلت له بغيظ: وما شأنك وأمّي؟ لن أخبرك باسمها. فقال: لا بدّ من ذكر اسمها، وإلا فمن لا يملك الجنسية لا يُعترف به وبوجوده. فقلت له: لا أخبرك باسم أمي ولا أريد من أحد الإعتراف بوجودها. وبعد أخذ وَرَد قلت له أن اسمها «أَمَةَ الله». فلم يفهم المغزى وتصوّر أن اسمها «أَمَة الله»

حقاً، في حين كان اسمها الصحيح هو رقية. وما زال اسمها في الجنسية هو أمة الله.

كان هذا المعلم يروي لنا تلك القصّة بسخرية واستهزاء، ثم يستنتج من كل ذلك أنكم تدرسون حالياً في الجامعات رجالاً ونساءً وينادي بعضكم زميلته الطالبة باسمها من غير تحرّج، ونحن أيضاً ننادي الفتيات بأسمائهن في قائمة الحضور والغياب؛ في حين لم تكن الأوضاع على هذه النحو حينذاك، وكنا نأبى حتّى التصريح باسم امرأة جاوزت الثمانين من عُمرها. روى لنا الأستاذ هذه القصة معتبراً إياها كضربة للإسلام بصفته ديناً قديماً ويحافظ على كل قديم، وثناءً على التجديد والحداثة، في إشارة منه إلى الحقوق التي منحت حديثاً للمرأة في ذلك الوقت.

وبعد مدّة من الزمن حدثت أبي بهذه القصّة فقال: إن مثل هذه القضية لا صلة لها بالإسلام وبالتقاليد، وإنما تتعلق بذلك الرجل وأمه، فكل من أخذ جنسية ذكر اسم أمّه فيها. وعلى كل الأحوال فإنَّ عدم التصريح بالاسم والإستعاضة عنه بـ «أمَة الله» يعكس حالة من التعصب ضد ذكر اسم المرأة، وأما الظاهرة الموجودة في الوقت الحاضر وهي مناداة المرأة باسم أخيها مثلاً، كأن يقال على سبيل المثال «أخت حسن»، فهذا تقليد

إجتماعي لا صلة له بالإسلام. والدليل على ذلك هو أن أهل بيت الرسول من الأئمة إمتدت حياتهم إلى ما يقرب من ٢٥٠ سنة وكانت العلاقات العائلية واضحة وصريحة على امتداد هذه الفترة، ولم يروِ أحد أن علياً كان يخاطب زينب بعبارة أخت الحسين مثلاً. والظاهرة الشائعة حالياً هي مجرد تقليد إجتماعي مُتداول في مجتمعنا. ومن يبتغِ رفع لواء معارضة مثل هذه التقاليد، لا بدّ له أولاً من الفصل بين التقاليد وبين الحقوق الإنسانية التي يدعو إليها الإسلام. فإذا كنت تتحدث عن الإسلام لا ينبغي عليك ذكر أبيك وأمك وجدَّتك وما يجري في حياتك؛ لأن أمثال هذه الأمور متعلّقة بالتقاليد والعادات الإجتماعية، ولا تعد معياراً لحكم الدين بل يجب عليك ـ إذا شئت التحدث عن الإسلام ـ أن تذكر آل الرسول وسيرتهم ونهج الإسلام، وما شابه ذلك، وتتحدث عن الحقوق التي كانوا ينادون بها ويدعون إليها، إذ كانت شخصياتهم واضحة وصريحة وعلاقاتهم وحقوقهم واضحة وصريحة أيضاً.

فعلى الرغم مما كان يتصف به رسول الله ﷺ من حزم وإقتدار، كان في بيته ليّن العريكة وسهل الخُلُق إلى درجة أنَّ زوجته[١] كانت تتصرف معه بوقاحة، مما دفع شخصاً كعمر إلى

---

(١) المقصود هنا زوجته ابنة عمر بن الخطاب، والقصة معروفة في كتب السيرة، راجع السيرة الحلبية وسيرة ابن هشام.

أن يقول له ذات مرة: لماذا تفسح لها المجال إلى هذا الحد؟ دعني أضرب عنق ابنتي عقاباً لها على هذه الوقاحة.

وفي مقابل هذا التصرّف يأتي شخص ويتّخذ سلوك جاره وأقاربه كمعيار للخلق الإسلامي. في حين أن هذا الجار والقريب حتى وإن كان متديّناً، فهو ينتمي أيضاً إلى بيئة إجتماعية لها عاداتها وتقاليدها. وهنا يجب على المرء أن يميّز بين ما هو إسلامي وبين ما هو إجتماعي أو ما يتعلق ببيئة معيّنة. لأن مثل هذه الأنماط السلوكية تختلف من مجتمع إسلامي إلى آخر.

الرسول ﷺ والمرأة

كان السلوك الإسلامي في عهد الرسول مثيراً للدهشة. ويروى في هذا الصدد أن رسول الله ﷺ لمّا أراد المسير إلى غزوة حُنين (تقع حنين بين جدّة ومكّة). ومعنى هذا وجوب قطع مسافة مابين ٤٠٠ إلى ٥٠٠ كيلو متر من المدينة إلى مكّة ثم التوجّه من مكّةَ باتّجاه الغرب) جاءه عدد يتراوح ما بين ١٠ ـ ١٥ فتاة من فتيات المدينة ما بين سن التاسعة إلى الحادية عشرة وطلبن منه السماح لهن بالمسير مع جيشه لمداواة الجرحى هناك، فوافق الرسول على طلبهن واصطحبهنَّ معه إلى الحرب للقيام بتمريض الجرحى.

وكان مسجد الرسول مركزاً لنشاطات إجتماعية كثيرة، حيث كان كل ركن من أركانه موضعاً لنشاط إجتماعي معين. وكانت في أحد أركانه خيمة لرفيدة تداوي فيها الجرحى بأمر الرسول، ومعنى هذا أن رفيدة، هذه المرأة المسلمة، كانت لها خيمة في داخل المسجد ـ وهو معبد المسلمين ـ وبإذن من الرسول لمداواة جرحى الحرب برفقة عدد من النساء، وبقي سعد بن معاذ[١] الذي جرح في معركة الخندق، يتداوى فيه مدّة من الزمن إلى أن مات هناك. وبقيت هذه السنّة سارية المفعول في الإسلام إلى عدّة قرون. وقد رأيت في ديوان إبن يمين الفرومدي[٢] شعراً يمدح فيه حاكم سبزوار، علاء الدين، قال فيه: كأن ضيعتك في «فرومد» (وفرومد قصبة كبيرة لازالت قائمة حتى الآن، وقد كان لحاكمها علاء الدين فيها بساتين جميلة ومستشفى) جنّة من جنان الخلد وفيها مستشفى، وفي المستشفى فتيات كأنّهنَّ الملائكة يداوين المرضى.

ومن الطبيعي أنه حينما يكون هناك مستشفى تعمل فيها نساء في قرية صغيرة نائية في القرن السابع أو الثامن للهجرة، لا

(١) سعد بن معاذ (ت٦هـ/ ٦٢٧م) صحابي أنصاري أوسي، استشهد في معركة الخندق.

(٢) (ت ١٣٦٨) شاعر إيراني من كبار شعراء عصره. له ديوان يتألف من قصائد عامة وغزليات ومقطعات أخلاقية ومثنويات «الناشر».

بدّ أن تكون هناك مستشفيات أفضل منها في الري وطوس وبلخ وبخارى وبغداد[١]. ومع كل هذا نلاحظ المثقف الإيراني يطبّل ويزمّر لامرأة أمريكية ويرفعها إلى عنان السَّماء بصفتها أول امرأة في العالم مارست مهنة التمريض في الحرب العالمية الأولى. ولا أدري ما هي صلة المثقف الإيراني بأمثال هذه النساء. وفي مقابل هذا نلاحظ شخصاً آخر يؤمن بالتقاليد والقيم الموروثة يعارض باسم الدين ممارسة المرأة لمهنة التمريض من الأساس، معتبراً إياها عملاً مخالفاً للشريعة. وهكذا يتصلب المثقف المعادي للدين في موقفه، بعد أن يرى مثل هذا الشخص يهاجم هذه الظاهرة باسم الدين.

نلاحظ في مثل هذه الظروف كيف تتداخل الأشياء مع بعضها، وكيف تسحق الطاقات وتطمس الحقوق بسبب التعصّب الذي يتخذ من الدين شعاراً له، وكيف تذهب الكثير

(١) * الري: مدينة في شمال إيران فيها مزار ديني.
طوس: مدينة قديمة في خراسان بإيران خربها المغول سنة ١٣٨٩.
* بلخ: مدينة قديمة في أفغانستان: من المدن التاريخية الهامة. دخلها الإسلام فغدت عاصمة خراسان ومركزاً للثقافة الإسلامية المزدهرة. إليها ينتسب البرامكة وعلماء كثيرون.
* بخارى: مدينة في أوزبكستان. مركز ثقافي إسلامي.
* بغداد: عاصمة العراق. من عواصم الإسلام التاريخية. دعيت مدينة السلام. كانت مقرّ العلماء والشعراء ومركزاً للآداب والفنون. «الناشر».

من القيم الدينية ضحيّة لِمَا يسمى بالثقافة والتجديد ومحاربة العادات البالية.

وهنا يتبيّن مدى ثِقل المسؤولية التي تقع على عاتق الأشخاص الذين يفهمون الإسلام من جهة، ويحيطون بمجتمع اليوم ويعيشون حقيقة عصرهم من جهة أخرى. إذ يجب عليهم أن يستشعروا على الدوام في فكرهم وفي إرادتهم هذا الفاصل الزمني على امتداد عشرة أو أحد عشر أو إثني عشر قرناً منذ بداية الانحطاط الإسلامي وحتّى الآن. وذلك لأنهم يعيشون في القرن العشرين وهم أناس مثقفون طبعاً، بيد أن مشاعرهم وإيمانهم ومعتقداتهم لازالت تعيش قبل عشرة أو أربعة عشر قرناً. هذا ما يوجب عليهم طبعاً إدراك سعة هذا الفاصل الزمني، في أفكارهم ومشاعرهم ولا شك في أن اختزال هذا الفاصل الشاسع يعتبر مسؤولية في أعناقهم.

الدين المناعة الكبرى

وكما سبقت الإشارة، يُعتبر أكبر أسباب المَناعة التي يمكن أن تتسلح بها الأمة الإسلامية لمجابهة الدعوة الجنسية الفرويدية الوافدة إلينا تحت غطاء العلم، والتي تفوق الكفر سوءاً، هو وجود الدين، والثقافة، والقدوة الإنسانية وخاصة في البلدان الشرقية. فكما تؤدي فكرة الحرية الفرويدية دورها في الغرب

في تخدير الشباب لصالح قوى الاستغلال، فهي كذلك تؤدي في الشرق دور المستعمر؛ بُغية استغفال الأذهان وإلهائها عن الإلتفات إلى القوى الإستعمارية العالمية، وعدم الإهتمام بمصائرها. وهنالك بالنسبة لبلدان العالم الثالث ثمّة قضية أكبر من كل هذا، وهي إنعاش فكرة الحرية الجنسية وتصديرها إلى الشرق بهدف القضاء على المطالبة بالحريات الإنسانية. وكأنَّ الغرب يقول للشرق: إذا كنت تريد حرية، خذ هذه الحرية، وكأنه يقدمها له ثمناً للمواد الأولية التي يأخذها منه(١). وإذا ما توفرت له هذه الحرية ـ أي حرية الجنس ـ لا حاجة له بعدها لحرية أخرى! فأكثر المطالبين بالحرية عادة هم الشباب، فإذا ما توفّرت لهم الحرية الجنسية فسينغمسون فيها إلى درجة لا يستطيعون بعد ذلك الخروج منها والمطالبة بالحرية الإنسانية وما شابه ذلك من حقائق.

إن أكبر المقوَّمات المتوفّرة لدى الشباب المسلم لمقاومة هذه الدعوة المقيتة، على الرغم من افتقاره للكثير من الجوانب الأخرى، هو وجود قدوات إنسانية مشرقة يجب رسم صورها على جبين هذا العصر، ويمكن للشباب الذين يرفضون التقاليد

---

(١) إن الغرب مدين للشرق، ويجب عليه أن يقدم له شيئاً لقاء ما يأخذه منه من ألماس ونفط ومطاط، لكي لا يبقى مديناً له ولا يبقى الشرق دائناً؛ لأن الغرب دقيق في حساباته.

الرجعية البالية المعادية للدين وللإنسان، ولا يريدون الوقوع في براثن الإستعمار الثقافي الغربي، إقتفاء أثرها لمجابهة هذه الهجمة الغربية.

إمرأة من نوع ثالث

هناك امرأة من نوع ثالث تتطلع إلى مثل هذا الخيار، امرأة لا تقبل النموذج الموروث للمرأة، ولا تقبل النموذج المستورد الوافد من أقذر وأسوأ أعداء الإنسانية. فهي تعرف كلا النموذجين حق معرفتهما؛ وما يفرض عليها باسم التقاليد الموروثة لا صلة له بالإسلام، وإنما هو مأخوذ من عهود سيادة الأب وحتى من عهود الرق، وما يفد اليوم من الغرب لا هو من العلم ولا هو من الإنسانية، ولا هو من الحرية في شيء، ولا هو قائم على أساس إحترام المرأة، بل كل ما فيه أنّه مبني على أساليب مخادعة تمارسها القوى البرجوازية الحقيرة لتخدير بني الإنسان.

فإذا أرادت المرأة اختيار واحد من هذه المناهج؛ فهي لا تختار النهج التقليدي الرجعي، ولا النهج الحديث المستورد، وإنما تختار النهج الذي أراده الإسلام للمرأة. ومن حسن الحظ أننا إذا شئنا فهم النهج الثالث، فإنَّ لدينا عوامل كفيلة بذلك وفضلاً عن تلك العوامل هنالك أيضاً شواهد تاريخية. وهنالك ما هو أفضل من تلك العوامل وأكثر تجسيداً من التاريخ، وأشد

وضوحاً من المباحث العلمية والفقهية، وذلك هو التصوير العيني للشخصيات المثالية الموجودة في تاريخنا باسم الإمام وباسم الأسوة وباسم القدوة. وخاصة في الرؤية الشيعية حيث تجتمع تلك القدوات في غرفة مساحتها ٣ x ٤ أمتار. وكل واحد منها تجسيد لأُفق من آفاق الحياة، فالحسن قدوة في الصلح، والحسين أُسوة في الجهاد والشهادة، وزينب مثال في حمل أثقل رسالة إجتماعية في ميادين العدالة والحق، وفاطمة تجسيد للمرأة المثالية، وعليّ أُسوة في كل شيء.

لا أروم هنا تكرار الحديث عن فاطمة بصفتها أُسوة وقدوة. لأنني سبق لي أن قلت وكتبت كل ما أعرفه وكل ما خطر في ذهني[١]، بيد أنني أود الإشارة على سبيل المثال فحسب إلى أنَّ معرفة السيرة التاريخية ونقلها لا تفي بالغرض، وإنما ينبغي هنا التحدث عن كيفية الفهم، وكيفية استقاء الدروس من حياة هذه الشخصيات. فحينما يعد الرسول فاطمة كواحدة من أكبر نساء العالم، وحينما يواسيها على تحمل المصاعب والآلآم ويقول لها: ألا تريدين أن تكوني سيدة نساء العالمين؟ فهذا ليس من باب المجاملة التي يثني فيها أب على ابنته؛ لأن الرسول لا يتّبع أمثال هذه المجاملات، بل قال عنها لو أن فاطمة سرقت

(١) المقصود كتاب المؤلف «فاطمة هي فاطمة» الصادر عن دار الأمير للثقافة والعلوم، بيروت ـ الطبعة الأولى ٢٠٠٣م. «الناشر».

لقطعت يدها، وذلك في معرض ردّه على أسامة بن زيد[١] الذي جاء متشفعاً لامرأة أخطأت، وقال لها في موقف آخر أمام الناس: يا فاطمة إعملي فإنَّ أباك لا يغني عنك يوم القيامة.

كانت علاقات الرسول جادة وحازمة ولا مجال للمزاح والمجاملة فيها. ولم يكن مثلما نحن عليه من المجاملات. وهذا ما جعل الرسول يوصيها بالصبر والتحمل والنهوض بأعباء المسؤولية الملقاة على عاتقها. وبما أن أخواتها لم يكن عليهن مثل هذه المسؤولية لذلك كانت كل واحدة منهنَّ تعيش منعّمة في دار زوجها ولم يفرض النبي على أي منهنَّ قيوداً وشروطاً استثنائية، وكان بإمكان كل واحدة منهن العيش وفق القواعد العامّة المتعارفة بالنسبة لسائر النساء، في حين كانت فاطمة شخصية تفوق سائر النساء. والرسول عندما يقول لها إنك قادرة على أن تكوني سيدة النساء، فهذا الكلام ليس من باب المجاملة، ولا يعنى أنه جعل منها صنماً لأتباعه يعبدونها ويكيلون لها المديح والاطراء، أو أنه جعلها ضحية يقيمون عليها المآتم والعويل، وإنما أرادها مثالاً وقدوة ليشخّصُوها ويتعلموا منها الدروس ويطبّقوها في حياتهم. وهذا هو معنى «سيدة نساء العالمين».

---

(١) أسامة بن زيد بن حارثة (ت٥٤هـ/ ٦٧٤م) صحابي من موالي النبي «الناشر».

ولكن كيف التعلّم من حياتها؟ لا شك أنكم تعرفون حياة فاطمة في شتى أبعادها ولا داعي لتكرار ما سبق ذكره. وكل ما أريد قوله هنا هو كيفية استقاء الدروس من حياة هذه الشخصية. فلو طرحت قضية فدك[١] على بِساط البحث مثلاً، ما الذي يمكن تعلّمه من حياة فاطمة في هذا المجال؟ سبق لي أن ذكرت أن المساعي التي بذلتها فاطمة من أجل استعادة فدك لم تكن ترمي إلى الحصول على مزرعة صغيرة فحسب، إذ لا ينبغي التقليل من شأن جهودها ومساعيها إلى هذا الحد، بل كان الاعلان المتواصل عن غصب فدك والعمل من أجل استعادتها تعبيراً عن غصب وانحراف النظام الحاكم الذي كانت فاطمة تعارضه. وكان هذا بمثابة نموذج سياسي على عدم شرعية وعدالة النظام الذي تسلّم زمام السلطة على الرغم من كل التبريرات الدينية، وعلى الرغم مما كانت لأكابر الصحابة من وجاهة.

ومن الأمثلة على ذلك هو فدك. وحتى لو كان درهماً واحداً فإن له قيمة كبرى فيما لو أُتخذ كرمز لإثبات حقيقة معيّنة، حيث لا ينظر إليه عندئذ من حيث قيمته الإقتصادية. فإذا لاحظنا المحاولات الدائبة التي بذلتها فاطمة من أجل استعادة

(١) فدك: واحة في الحجاز كانت قد انتزعت من فاطمة بعد وفاة النبي إثر إجتماع السقيفة، ولم تتوقف يوماً عن المطالبة بها. «الناشر».

فدك، وإذا لاحظنا سعيها للكشف عن زيف الإنتخابات التي حصلت في السقيفة، وإذا رأينا جهادها المرير من أجل إحقاق حق أبي الحسن علي، ينبغي أن لا يحصر الموضوع في ذلك الإطار الضيّق.

أما اليوم، فلا فدك ولا مجابهة ولا سقيفة. ولكن لا تتصوروا أن تلك الموضوعات تدخل في اطار الموضوعات التاريخية التي ولّت وانقضت، بل هي موضوعات حيّة يجب تكرارها، ولكن لا بمعنى الموضوعات التاريخية المكررة التي يجب التحدث عنها سنوياً، بل بمعنى أن تُثار وتُستقى منها الدروس التي يمكن أن تؤخذ عن أكبر مظهر للأمومة في تاريخ الإسلام، وعن مثال بارز لربّة بيت لها زوج وأولاد، وكانت طوال عمرها، من طفولتها وحتى زواجها ومن زواجها حتّى وفاتها، امرأة ذات مسؤولية عن مصير الأمة، وذات فكر وعقيدة وجهاد، وتشعر بمسؤولية حيال الانحراف والظلم الموجود في المجتمع، ولها مشاركة وحضور فاعل في قلب الأحداث الإجتماعية، ولم تلزم الصمت حتّى لحظة وفاتها على الرغم من معرفتها بأن هذا الجهاد لن يعود عليها بالنصر. فهذا درس ومسؤولية إجتماعية.

عندما كانت فاطمة بين الخامسة والعاشرة من عمرها،

كانت إلى جانب أبيها دائماً. ومن الطبيعي أن فتاة في السابعة أو الثامنة من عمرها لا يتحتم عليها خوض غمار الصراعات الإجتماعية الحادة من أجل أبيها، لأن صبية في مثل هذا السن تكون جليسة الدار عادة، بيد أنها كانت تشعر بمسؤولية إزاء مستقبل الرسالة رغم صغر سنها؛ فحيثما كانت هناك مجابهة يخوض الرسول غمارها منفرداً، نلاحظ هذه الطفلة إلى جانبه على الدوام.

وفي أيام الحصار، وهو الحصار الذي حينما يذكره بطل كسعد بن أبي وقاص بعد سنوات يرتجف لهوله ويصفه بأنّه من أقسى السنوات وأمرَّها، وفي تلك الأيام القاسية العصيبة التي كانت أثقل أعبائها تقع على عاتق الرسول وآل الرسول باعتباره المسؤول عن ذلك الجوع والضغط والألم والعذاب، كانت فاطمة تملأ كل ركنٍ من أركان ذلك البيت وتلاطف بيديها الصغيرتين الناعمتين أُمها وأباها البطل الوحيد، كما كانت تسلّي أخواتها الأكبر منها. وكانت هي مصدر إشاعة المحبة والنشاط في تلك الدار التي كانت تجابه الكثير من المصاعب والمعضلات إلى حين الهجرة إلى المدينة المنورة. وذاقت من بعد الهجرة أقسى المآسي والويلات إلى أن دخلت دار علي. وكانت تشعر بمسؤولية إجتماعية حتّى في إختيار علي؛ فلم يكن اختيارها له بصفته قادراً على إدخال السعادة على من يتزوجها،

إذ كان كل من يعرف علياً يدرك تمام الإدراك أنه ليس ممن يحفل بمباهج الحياة اليومية، وليس هناك شيء من السعادة التي تتوقع المرأة أن يأتيها بها من خارج الدار. كانت تعلم أن علياً لا يملك إلا المحبّة والسيف، ومن الطبيعي أنه لا يعود يوماً إلى الدار الا وهو صفر اليدين. ونعلم أن كيانه لم يخلق ولم ينشأ إلا كسندان تتناهى إليه جميع الطرقات والضربات، وكانت بقبولها لهذا الرجل كزوج لها، قد اختارت مسؤولية فكرية وإجتماعية وإنسانية كبرى.

وكما لاحظتم، كيف كانت فاطمة صائبة في خيارها، وإلى أي حدّ تمسكت بخيارها وبرسالتها حتّى يوم وفاتها، ويا لها من أسرة فريدة على مدى التاريخ تلك الأسرة التي أنشأتها فاطمة، يرى فيها الإنسان، مسلماً كان أم غير مسلم، ملاكاً يفوق الطبيعة البشرية؛ أسرة أبوها علي وأمها فاطمة وأبناؤها الحسن والحسين وإبنتها زينب، وكل منهم مثل أعلى، وكلهم من أسرة واحدة. نحن لا نجمع أعضاء هذه الأُسرة من شخصيات متناثرة على مختلف القرون والأعصار، وإنما كانوا جميعاً من أسرة واحدة وفي بيت واحد ومن جيل واحد.

إنه لَمِن المؤسف والمؤلم حقّاً أن تنتهي أُسرة بمثل هذه الخلفية الدينية والثقافية إلى ذلك المصير. وأنَّ مثل تلك

الشخصية التي انتزعت الثناء حتى من امرأة كعائشة[1]، تمثل أبرز دليل على عظمة لا يتسنّى لأحد إنكارها، وهي صفة يقرأها في شخص فاطمة كل منصف. كانت عائشة معروفة بحب المنافسة وبمشاكسة الآخرين وبعقدها النفسية، وأحد الأمثلة على ذلك أنها كانت شديدة الغيرة على رسول الله، إلا أن الرسول كان يحب فاطمة إلى أبعد الحدود. وهذا ما كان يؤجج أوار ألغيظ في نفسها مما دفع بها إلى إثارة الكثير من المشاكل وإقتداح الكثير من الشرر إلا أنها في الوقت ذاته تثني على فاطمة على نحو أثار دهشتي، ويستدل منه على عظمة لا سبيل لإنكارها؛ فقد قالت فيها: «ما رأيت أفضل من فاطمة إلا أباها».

يكفي كل مثقفة أن تقرأ اليوم شيئاً يدلّها على معالِم هذه الشخصية، ويكفيها أن تقرأ حتى تُقارن بين المرأة التي اعتُبرت في تاريخ الإسلام كقدوة وأسوة وبين المرأة العصرية، بدلاً من المقارنة بين المرأة التي تطرح اليوم في المجتمعات الإسلامية بصفتها امرأة مسلمة وبين المرأة الحديثة. وسنرى حينذاك طبيعة النتيجة التي تتوصل إليها، ولكن بشرط أن يقدّم الكتّاب والباحثون والوُعَّاظ المثقفون صوراً دقيقة لهذا الجيل، وهذا

---

(١) عائشة (ت٥٨هـ/ ٦٧٨٨م) بنت أبي بكر، أم المؤمنين. حرّضت على الإمام عليّ بعد مقتل عثمان وهي صاحبة الجمل في وقعة الجمل. «الناشر».

كفيل بحقن هذا الجيل بمصِل مضاد لهذا الهجوم.

ولو شاهدت المرأة تلك الصورة الحقيقية للمرأة المسلمة في صفين[١] لأدركت كنه المرأة المثالية؛ إذا كانت النساء في صفين من أكبر عناصر تشجيع وشد عزائم الرجال الذين كانوا يقاتلون تحت راية علي (عليه السلام) ودفعهم للإستماتة في مقاتلة العدو بواسطة الخطب والكلمات المثيرة. وهكذا كان دور المرأة. وبعد معركة صفين وبعد شهادة علي وبعد كل تلك الأحداث التي بقيت في ذاكرة العدو سنوات طويلة وبقي معاوية يتذكرها مع أننا قد نسيناها، أمر معاوية بأن يأتوه بامرأة ألقت في صفين خُطباً بليغة تحضّ فيها على مقاتلة جيش معاوية. ولمّا حضرت بين يديه قال لها: قد عهدناك تحضّين علينا عدونا. فقالت: أعف عما سلف يعفُ الله عنك. فقال لها: أتعلمين أنك شريكة في كل دم أريق لنا بسيف علي؟ فقالت: بشّرك الله كما بشّرتني، هكذا يجب أن تكون المرأة.

من جملة الكتب التي دوّنت عن أصحاب الرسول كتاب خصص للنساء؛ فحيثما كان هنالك إسلام حقيقي في المجتمع، أدت النساء أدواراً مهمّة ونشاطات بارعة في المجالات الأدبية

---

(١) صفين: موقع في سورية على الفرات عنده تلاحم جيشا الإمام علي ومعاوية في قتال انتهى بالتحكيم ٣٧هـ/ ٦٥٧م. «الناشر».

والإجتماعية. ولكن بعدما إنحط كل شيء، نضبت أيضاً طاقات النساء؛ إذ لا يوجد بين الرجل والمرأة أية فوارق. وهل يتمتع الرجل بحقوق لا تتمتع بها المرأة؟ أهو الحجاب؟ ولكن أليس للرجل حجاباً؟ وما هو الحجاب؟ أهو مجرد العباءة؟

العباءة والحجاب

من جملة الأمور التي طرحها الأستاذ المطهَّري(١) هي قضية العباءة بصفتها وضعاً معيّناً، وقضية الحجاب باعتبارها مبدءاً إسلامياً. فالعباءة شكل خاص وتقليد إجتماعي لدى قوم بعينهم، ويتغيّر شكلها من بلد إلى بلد ومن قوم إلى قوم وفقاً لإختلاف المناخ والنظام الإجتماعي والوضع الثقافي.

أما أصل الحجاب فهو حكم فقهي يقبله كل عاقل وواع. إلا أن هذا التقليد الإجتماعي، وهذا الحكم الإسلامي تداخلا اليوم في بعضهما إلى درجة أصبحت معها هاتان الكلمتان مترادفتين في أذهان بعض الناس، حتى أن المثقفين أخذوا يهاجمون الحجاب ظناً منهم أنهم يهاجمون عادة إرتداء العباءة.

وأخذ المتعصبون للدين في مقابل ذلك يدافعون عن العباءة

---

(١) الشيخ مرتضى المطهّري أحد كبار الرموز الفكرية للثورة الإسلامية، وكان يحاضر إلى جانب شريعتي في حسينية إرشاد أيضاً قبل انتصار الثورة، قضى شهيداً بعملية إغتيال بُعيد انتصار الثورة «الناشر».

فقط ظناً منهم أنهم يدافعون عن مجمل الحجاب، ويرفضون أي نوع أو شكل آخَرَ له. ومن الطبيعي أن مثل هذا التضارب يقود إلى القضاء على كثير من الأشياء ويضيّع فرصة طرح الكثير من الحقائق.

هذا المثقف نفسه لا تتوفر له فرصة لمعرفة شخصية زينب، فزينب حينما شهدت انبثاق الثورة (وكان زمام تلك الثورة بيد الإمام الحسين وأخيه، أما مشاركة زينب فيها فلم تكن أداءً لمسؤوليتها إزاء أخيها، وإنما أداءً لمسؤوليتها أمام ذاتها وأمام ربّها) ورأت مسير قائد هذه الثورة نحو مجاهدة الظلم الموجّه ضد المجتمع، تركت أُسرتها ودارها وزوجها وسارت في ركاب الثورة وبقيت تقتفي خُطا الإمام الحسين إلى أن استُشهد، ومرّت عليها ظروف ولحظات أشد وأمرّ من اللحظات التي مرّت على الحسين وأنصاره. فتناولت لواء الثورة بمفردها، وأفصحت بكل بسالة وصلابة وبلا تقية ولا مواربة، وبالكلمة فقط، عن الحقيقة التي أفصح عنها الحسين بدمه، وصرخت بوجه كل طاغية، وبذرت في كل أرض وطأتها قدمُها ـ منفية أو مسبية ـ بذور الثورة؛ فنمت هناك وأينعت محبة أهل البيت حتى في البلدان التي لا تميل للتشيّع علانية.

بعدما انهارت جميع القوى وتحطَّمت جميع المواقع التي

كان يدافع عنها الرجال، وعلى الرغم من استيلاء إمبراطورية الخلافة على الشرق والغرب ودحر الروم والفرس، اضطلعت امرأة واحدة بمواصلة تلك الثورة، ونشرت في كل مكان فكر الحسين ومدرسة الحسين، وأخذت معها حيثما ذهبت قطرة دم تعرضها على مدى الأزمان كنموذج للدماء التي أريقت في كربلاء. وكانت هذه المعجزات كلّها من فعل امرأة واحدة. فإذا رأت امرأة واعية من نساء هذا القرن مثل هذا الدور الذي إضطلعت به امرأة من بيت فاطمة، ستعلم قطعاً أين يجب البحث عن امرأة العصر، وكيف يجب أن تصاغ، وأن بالإمكان تربية المرأة وفقاً لهذا النموذج في كل العصور.

هذه القيم لا تُبلى وفقاً لتقادم النُظُم الإجتماعية والثقافية والعلاقات الإنتاجية، بل هي حيّة ما بقيت الإنسانية حيّة. لا بدّ من معرفة شخصية فاطمة التي قضت صباها في الجهاد وأبدت في فترة الحصار الذي استمر ثلاث سنوات في شعب أبي طالب صبراً وتحملاً فائقاً، وكانت في ما بعد الحصار خير نصير؛ وفي فترة الوحدة وفقدان الأم وذهاب الأختين حيث بقي الرسول ـ قائد النهضة ـ خلالها وحيداً كانت له بمثابة الأم «أُم أبيها»، وفي المدينة المنورة رضيت بأكبر مجاهد وقائد وشاب وغريب وفقير كزوج لها وذهبت إلى دار لا متاعَ فيها سوى الفَقر والمحبّة. ثم أصبحت فيما بعد أنبل زوجة لأسمى شخصية، وهي شخصية

ذات روح لم يكن يسع عظمتها الوجود كله؛ فكانت له زوجة ورفيقة وأنيساً لوحشته وغربته، وكانت له خير عون في جهاده ووحدته وحرمانه، وكانت فوق كل ذلك حُجراً ترعرع فيه الحسن والحسين وزينب.

بيت فاطمة

فالحسين كان مثالاً في خصاله الإنسانية؛ وقد كان دور فاطمة في تنشئة زينب أهم من دورها في تنشئة الحسين، وذلك لأن الحسين شبَّ في مسجد الرسول وبين الصحابة، وفي أيام الصراع الذي كان محتدماً في المدينة، وفي قلب الأحداث الإجتماعية، في حين لم تكبر زينب إلا في دار أبيها وفي حِجر أمّها، ثم استطاعت أن تؤدي، فيما بعد، ذلك الدور المكمّل لثورة الحسين، مما يدل على براعة فاطمة في تربية تلك النفوس السامية. يا له من بيت كان في كل أبعاده مثالاً في تجسيد القيم الإنسانية حتى أضحت عترة الرسول ملاكاً لمعرفة الإسلام في كل عصر.

ثم حل بعد ذلك عهد عصيب وهو العهد الذي تلا رحلة الرسول، إذ بقيت فاطمة حينذاك مظهراً للفقر ومكابدة المشاق والعمل في البيت وخارجه. وبقيت فاطمة حتَّى في ذِروة العِزّ والاقتدار حين كان أبوها قائد النهضة وزوجها أبرز بطل فيها،

تعيش كأية امرأة أخرى، كأية مجاهدة تكابد الجوع والحرمان؛ أي أنّها كانت في حالة مجاهدة حتى في عهد عزّ زوجها وحكم أبيها. وحلّ من بعد ذلك عهد عصيب فرض عليها حالة من المجابهة والتحمل في ظل صَمت الصحابة ورجال بدر وحُنين، حتى أنها كانت تطرق دُور الصحابة وتقابل وجوه القوم والشخصيات السياسية وتعرض آراءها وتنتقد وتوجّه، وكان دورها الإجتماعي يتجسّد حينذاك في استشراف الفاجعة وتحليل حيثياتها قبل حلولها، وكشف وقائع المستقبل أمام الأبصار.

وبعد وفاة فاطمة تبدأ بذكرها وبجهادها حياة أخرى في تاريخ الإسلام؛ فكانت رمزاً ومظهراً لكل دعوة حق ولكل حركة ثورية انطلقت في القرون الثاني والثالث والرابع وحتى القرنين السابع والثامن، على امتداد تاريخ الإسلام ومن مصر إلى إيران.

وفاطمة قادرة اليوم على تربية المرأة المسلمة، فهي بصفتها أُمّاً ربّت في مرحلة من المراحل بنتاً كزينب وأبناءً كالحسن والحسين، وواكبت في بُعد آخر من أبعاد المرأة المثالية ـ وبصفتها زوجة ـ علياً فيما عاناه من وحدة ومصاعب، وبصفتها امرأة ذات مسؤولية إجتماعية لم تتوقف عن الجهاد لحظة واحدة منذ ولادتها وإلى أن دفن أبوها وحيداً غريباً؛ فقد حاربت على الصعيد الخارجي ضد جبهة الكفر حتّى يوم الهجرة،

وحاربت على الصعيد الداخلي ضد الانحراف حتى وفاتها؛ وحتّى بعد الموت أيضاً أوصت علياً: يا علي، ادفنّي ليلاً كي لا يحضروا عند قبري ولا يصلّوا علي، ولا يستغلوا اسمي لتبرير غصبهم للخلافة. إن امرأة تريد أن تجعل حتى موتها ودفنها وسيلة لمناصرة الحق ومجاهدة الباطل خليقة بأن تكون مثالاً تقتدي به المرأة العصرية.

بين الغرب والجاهلية

لديَّ سؤال أود طرحه على الدكتور «توسّلي»[١] فيما يتعلّق بهذا الموضوع المثير وهذا البحث العلمي بسبب ما يتّسم به من أهمية. وخلاصة ما استنتجته من كلامه هو أن الأسرة في إيران تميل إلى الغرب من جهة، وإلى الجاهلية من جهة أخرى. بمعنى أننا متغرَّبون من حيث المظاهر الإجتماعية، في حين نميل من حيث المثل إلى القيم الجاهلية. وعلى العموم فإننا ننجذب كما نوّه الأستاذ «بلاغي»[٢] إلى الجاهلية حيثما كانت، أو من الأفضل القول أننا نساق نحوها. وعلى كل الأحوال فإننا إذا ابتعدنا عن الإسلام نكون أحراراً في المسير بأي إتجاه نشاء؛ ولهذا سرعان ما نتغرب في سلوكنا وفي ظاهرنا الإجتماعي، في

(١) الدكتور غلام عباس توسلي، أستاذ جامعي، محاضر في حسينية الإرشاد قبل انتصار الثورة، نقل بعض أعمال الدكتور شريعتي إلى اللغة العربية. «الناشر».

(٢) لم نعثر على ترجمته. «الناشر».

حين نتخذ طابعاً جاهلياً في تقاليدنا وعاداتنا الشعبية والقومية، بمعنى أن المرأة في مجتمعنا تميل إلى تقمّص شخصية المرأة الأوروبية بحذافيرها، في حين يتخذ المهر طابعاً جاهلياً باعتباره ثمناً لبيعها وشرائها ورمزاً لعهد العبودية واسترقاق المرأة والمتاجرة بها.

عَنَّ لي هنا أن أتقدّم بسؤال للدكتور «توسّلي»[١] حول الرأي الذي أثاره عن علاقة المهر بالمستوى الدراسي، وقد ينطوي سؤالي هذا على تنزيه للطبقة المتعلّمة إذ يبدو من الصعب جداً التوفيق بين ارتفاع المستوى الدراسي لدى المرأة والرجل، وبين استشراء عادة جاهلية، في حين أن مثل هذا المنحنى يجب أن يسير في الإتجاه المعاكس تماماً؛ أي كلما ارتفع مستواها الدراسي يصبح تقليد المهر وكأنه إهانة لها. وهذه في الحالة الطبيعية، بيد أننا نراه يتحرك حالياً في الإتجاه المعاكس. فقد استُدِلَّ من دراسة ميدانية أجريت بشأن المهر في طهران باعتبارها أكثر مدن البلاد تجسيداً لمظاهر المستوى الدراسي والحياة المدنية الحديثة أو «الجاهلية الحديثة»، استُدِلَّ على وجود علاقة مباشرة ـ وليست عكسية ـ بين ارتفاع المستوى الدراسي وغلاء المهور. ولكن هل غلاء المهور ناجم

(١) مرّت ترجمته «الناشر»..

عن ارتفاع المستوى الدراسي، أم بالعكس؟ وهنا تُثار قضية أساسية أخرى، وهي ضرورة إستطلاع موقف الإسلام وتأثيره في هذا المضمار. وسنكتفي في إثارتنا هذه بدراسة الصلة بين المستوى الطبقي والدراسة.

يسير نظام التربية والتعليم في الحوزة العلمية من حيث المستوى الطبقي في الوقت الحاضر على ذات النسق الذي كان سائداً قديماً، أي انه عبارة عن نظام تربية وتعليم حر أو منفتح وفقاً للأسس الإسلامية. بمعنى أن الشخص الذي يصعب عليه العيش في المدينة أو حتى إذا كان عاجزاً عن توفير أدنى مستلزمات الحياة في القرية، يمكنه وبكل سهولة مواصلة الدراسة في الحوزة العلمية وفي أي فرع يشاء، ويتدرج إلى مستوىً علمي ودراسي تبعاً لإستعداده الذهني وكفاءته العلمية، حيث تتوفر له هنالك مستلزمات الحياة ـ بأدنى صورها على الأقل ـ من غير أي يواجه أية مشكلة في هذا الصدد. وقد أدت هذه الحالة إلى إيجاد وضع طبقي حيث دلّت التحقيقات في هذا الصدد على أن معظم كبار العلماء المسلمين الذين درسوا في الحوزات العلمية ذوو أُصول قروية؛ أي أن أكثر من تسعين بالمائة من العلماء الكبار الموجودين حالياً في مستوى الإجتهاد أو المرجعية منحدرون طبقياً ـ خلال المائة سنة الأخيرة التي يمكن دراستها على الأقل ـ من طبقات قروية معدمة، كأن

يكونوا أبناء فلاحين أو أبناء ملاكي القرى، ثم دخلوا أجواء الحوزة العلمية المفتوحة التي لا يحدها قيد أو شرط وتدرجوا إلى مرحلة الإجتهاد وصاروا مراجع أو علماء وفقهاء كبار ذوي شخصية علمية وإجتماعية مرموقة.

أما بالنسبة للدراسة الحديثة في المدارس الإعدادية والجامعات فهي محاطة بقيود كثيرة أهمّها العامل المادي والنفقات التي يجب أن يدفعها الطالب؛ هذا فضلاً عمّا تستلزمه الدراسات العليا من نفقات باهظة لا يستطيع تحملها أيُ كان. وهذا يعني أن المستويات الدراسية ارتبطت إلى حد بعيد بالوضع الطبقي؛ فعلى العكس من علماء الدِّين الكبار المتخرجين من الحوزات العلمية المنحدرين من طبقات فقيرة ومسحوقة، هناك أصحاب الشهادات العليا والمتخرجون من الجامعات الأوروبية ومن حازوا على شهادات الطب والهندسة وما شاكلها من دول أجنبية ـ فأكثر أساتذة الجامعات والأطباء والمهندسين المتخرجين من جامعات إيرانية أو أجنبية ـ هم من أبناء الطبقات الغنية. أي أن تسعين بالمائة منهم من أبناء الطبقة البرجوازية وأصحاب رؤوس الأموال الذين يعيشون في المدن، وحوالي ٥ إلى ٦ بالمائة منهم من أبناء ملاكي القرى، وهنالك نسبة قليلة جداً من أبناء القرى المعدمين ممن إستطاعوا مواصلة دراساتهم العليا أو إكمال الدراسة في الخارج. ويتّضح من هذا

أن غلاء مهور النساء لا علاقة له بارتفاع المستوى الدراسي، بل يُعزى إلى العلاقة العضوية بين المستوى الدراسي والمستوى الطبقي من حيث الجانب المادي.

تلخيص وإختزال

كانت النقاط التي أشار إليها السيد «البلاغي» على جانب كبير من الأهمية لا يسبب ما تضمنته من إثارات تستجلب النقاش، ولكن بسبب عمقها وقيمتها الإنسانية التي لا تُدرَك منذ الوَهلة الأولى. ولقد أثارت هذه النقاط قضايا أساسية وعميقة جداً كان من جملتها قضية الأسرة وأصالة الأسرة التي طرحها أيضاً كل من الدكتور «سامي»(١) والدكتور «توسّلي».

أما الموضوع الرئيسي الذي طرحه السيد «البلاغي» فقد رسم فيه النهج الذي يجب أن تُصاغ بحوثنا وفقاً له، وتُصنف في ضوئه؛ حيث كنا قد طرحنا في البداية الموضوعات المتعلّقة بالمرأة، والأسرة، والرجل، والعلاقات المُتبادلة، والقضايا الإجتماعية، والشؤون الحقوقية للأُسرة كلاً على حدة، وصنّفناها كمواضيع مستقلّة لنتناولها موضوعاً موضوعاً، إلا أنّ هذه الفكرة تغيّرت في أعقاب الأطروحة التي تقدم بها السيد

(١) الظاهر أنه الدكتور جعفر سامي الدبوني الذي قام بتعريب بعض كتب الدكتور شريعتي.

«البلاغي»، وكان هذا التغيير أساسياً وواجباً؛ بمعنى أننا لو كُنّا قد بحثنا تلك الموضوعات على نحو مجرد ومستقل، لكنّا كمن فصل أجزاء جسم حي ودرس مكونات وعناصر كل واحد منها على حدة، فهو حتّى وإن درسها على أكمل وجه لَمَا توصل إلى النتيجة التي ينبغي له استحصالها، وتلك هي وحدة الكيان الحي المسمى بالأسرة.

وعلى هذا الأساس فإنَّ التغيير الجذري الذي أسفرت عنه أُطروحة السيد «البلاغي»، كان ضرورياً جداً، بل إنه أهم موضوع طرح على بساط البحث في هذه الندوة، وفي الندوات التي سنعقدها مستقبلاً باذن الله؛ وذلك لأنه يمثل حُجر الأساس بالنسبة لجميع البحوث؛ ولأنه يعطي الأصالة للأسرة ويرى ضرورة الإنطلاق منها وجعل الموضوعات الأخرى فروعاً لها. وبعبارة أوجز: يجب تناول كل مسألة في إطار الأُسرة.

إذا سمح الأُستاذ «البلاغي»، أرجو من الأخوة الطلاب الجامعيين تدوين النتائج التي استخلصتها من كلمة السيد «البلاغي» والأساتذة الآخرين، وذلك لأنني لخصتها وبوّبتها (وهو العمل الوحيد الذي إعتدت عليه بصفتي معلّماً، ولعدم تخصصي في هذا المجال، ولعدم وجود رأي لدي أطرحه على مسامع الأخوة).

أُنبّه مُسبقاً إلى أنني أتلو على مسامعكم ما تسنى لي اختزاله من كلمة السيد «البلاغي» بشأن الالتزامات المتبادلة بين كل من الرجل والمرأة.

التزامات الرجل حيال المرأة:

أولاً: توفير نفقات الأسرة وكافة المصاريف التي تستلزمها الحياة العائلية. بمعنى أن توفير الميزانية الإقتصادية للأسرة يقع على عاتق الرجل، وتقع على عاتقه أيضاً جميع النفقات التي تحتاجها المرأة شرعاً وقانوناً، كالملبس والمسكن والمأكل وما إلى ذلك. وقد يُنظر إلى أمثال هذه الشؤون الإنسانية والأخلاقية وكأنها أمر طبيعي. ولكننا لو نظرنا إليها نظرة فاحصة لوجدنا لها دوراً حاسماً في كيان الأسرة وفي العلاقات الإنسانية، وسيتضح حينذاك أن هذه القضية لا تقتصر على كونها مجرد نصائح أخلاقية، بل إن السعادة الإنسانية مبنية برمّتها ـ كما يصفها أحد الكتاب ـ على بضعة كلمات بسيطة جداً، خاصة إذا أخذنا بالاعتبار أن الصورة التقليدية الموروثة في مجتمعنا ـ وهي صورة تحمل وللأسف طابعاً إسلامياً كاذباً ـ عن العلاقة الأخلاقية بين الرجل والمرأة إتخذت قالباً يختلف إلى حد بعيد عمّا أراده الإسلام بصفته ديناً نزل به الوحي.

ثانياً: إحترام المرأة بصفتها موجوداً له حرمته وكرامته.

ثالثاً: التسامح؛ بمعنى أن يتحمل الرجل سلوك زوجته وما لديها من نواقص أو حتى معايب، إنطلاقاً مما يتصف به هو من الكمال.

رابعاً: النظافة والأناقة والإهتمام بالمظهر الخارجي لأجل المرأة. بمعنى أن لا يهتم الرجل بنظافته وزينته عندما يخرج من الدار فقط، بل أن يهتم بهذه الجوانب أيضاً حتى عندما يكون في البيت، من أجل زوجته.

خامساً: تلبية الحاجة الجنسية للمرأة واجب إنساني وإسلامي. حتى أن الرجل يجب أن لا يهتم بالعبادة والرياضة الروحية بالشكل الذي يضرُّ بقواه الجسمية والجنسية.

سادساً: كتمان أسرار وعيوب زوجته عن الآخرين، وعدم إفشاء ما قد تتصف به من سلوك معين، أو خاصية أخلاقية.

سابعاً: السّماح للمرأة بزيارة وتفقّد أقاربها وأرحامها والإهتمام بشؤونهم وتقديم العون لهم، وعدم النظر إليها كسلعة محتكرة في إطار أُسرته ولأجل ذاته.

ثامناً: مواساتها في ما تعانيه من آلام وكروب تحل بها أو بأسرتها، ومساعدتها في هذا المجال.

تاسعاً: احترام حقها في الملكية الفردية. وهذا حق ينفرد به الإسلام دون سواه من الأديان والمذاهب. ولو كانت هنالك فرصة للتحدث عن هذا الحق في الديانة المسيحية أو لدى الروم أو في

الشرق الأدنى أو الشرق الأقصى، خاصة بعد أن تدخل المرأة في إطار الزوجية، لاتضح لنا تفرد الإسلام بهذا المبدأ. فلا بدّ من احترام حق الملكية الإقتصادية والفردية للمرأة بالشكل الذي يتيح لها حرية التصرف المطلق في ما تملك، في الوقت ذاته الذي يتكفل فيه الزوج بتأمين جميع نفقاتها، بل وحتى يمكنها استثمار ما تملك من ثروة والانتفاع من عوائدها في الوقت ذاته الذي يتحمل فيه الزوج جميع مصاريفها.

يُستدل من هذه النقاط على مدى الإهتمام والرعاية التي تحظى بها حقوق المرأة. ونلاحظ، في مقابل هذه الالتزامات التسعة، أنَّ إلتزامات المرأة إزاء الرجل أقل من ذلك، ويمكن تلخيصها فيما يلي:

أولاً: تمكين المرأة وطاعتها للرجل بصفته قيم الأسرة وحاميها والقائم بشؤونها. وقد سبق لنا أن بحثنا في ندوة سابقة موضوع القيمومة والمعنى المراد منه تفصيلياً.

ثانياً: عدم إدخال الغريب إلى الدار إلا بإذن الزوج.

ثالثاً: حسن معاشرة المرأة لزوجها وطلاقة المحيّا عند لقائه وفي مجمل سلوكها معه.

رابعاً: مشاركته في تحمل المشاكل والمصاعب والفقر والعوز وغيرها من رزايا الحياة التي قد تلمّ به، وعدم إرغامه على توفير

المتطلبات لها بأي نحو كان ومهما كانت الظروف. هذه هي الأمور التي أوردتها تحت عنوان الحقوق المتبادلة بين الرجل والمرأة.

أصالة الفرد أم أصالة الأسرة

كما وأرى من الضرورة تلخيص وإختزال الآراء التي تفضل بالقائها كل من الدكتور «سامي» الدكتور «توسّلي»، التي طرحا من خلالها قضية الأسرة على نحو عميق استناداً إلى بعض الاحصائيات والأقوال، وذلك لأهميتها في بحوثنا اللاحقة، حيث إن تطور حقوق المرأة تحت شعار تحرير المرأة، وبالشكل السائد حالياً في الغرب، تعتريه نواقص أوردها الدكتور «توسّلي» في كلمته، فضلاً عن السلبيات الأخرى الموجودة أساساً في هذه الأطروحة. وتتلخص هذه الآراء في أن تركيز الغرب على حرّية المرأة وكمالها وقيمها الإنسانية يصبُّ في مسار أصالتها الفردية؛ بمعنى أنه يُخرج المرأة من البيت ويعترف لها بحقوق خاصّة وأصيلة. وهذا ما ينتهي تلقائياً إلى القول بأصالة الفرد. ومن الطبيعي أن النزعة الفردية والقول بأصالة الفرد في العالم الغربي زعزعت المجتمع بصفته كياناً كاملاً ومتلاحماً، حتى أن روح المجتمع القديم التي كانت روحاً واحدة في مجتمع واحد، استحالت اليوم إلى روح

متداعية وإلى نزعات فردية مفككة. وهي الحالة التي طرحها دوركهايم[١] في نظريته التي يغالي فيها بتمجيد المجتمع والفرد، بل وأدى هذا الاتّجاه إلى زعزعة كيان الأُسرة؛ لأن القول بالأصالة الفردية للمرأة أسقط عضويتها من كيان الأسرة وأبرزها إلى المجتمع كفرد مستقل بذاته.

إن الفارق بين الإسلام الذي يقول بأصالة الأسرة، والغرب الذي يدعو إلى الأصالة الفردية للمرأة، هو أن الغرب ينظر إلى الزواج المتعارف بصيغته الحالية وكأنه علاقة مشاركة في تدبير شؤون البيت، وليس إقتراناً وتقارباً بين الرجل والمرأة، وينظر إليهما وكأنّهما موجودان مستقلان يعيشان سوية تحت سقف الأسرة. في حين ينظر الإسلام ـ في ضوء تقديسه لأصالة الأسرة ـ إلى الرجل والمرأة وكأنّهما نصفان يكمل أحدهما الآخر. وهذان الإتجاهان يحددان على وجه الدقّة طبيعة العلاقة بين الرجل والمرأة في الأسرة المسلمة، وطبيعة العلاقة بين الرجل والمرأة في الأسرة الغربية؛ إذ يعتبرهما الأول نصفين لكيان واحد اسمه الأسرة، بينما يعتبرهما الآخر شخصين مستقلين تماماً يعيشان إلى جانب بعضهما.

يقول الإسلام للرجل: أنت لباس للمرأة، ويقول للمرأة:

---

(١) دوركهايم (اميل) ١٨٥٨ ـ ١٩١٧ عالم إجتماع فرنسي. قال إن المجتمع هو مصدر الأحداث الأدبية والدينية. «الناشر».

أنتِ لباس للرجل. ولا ريب في أن هذه النظرة إلى العلاقة بين الرجل والمرأة تعكس بكل وضوح رأي الإسلام في أصالة الأسرة، وتؤكد أنهما ليسا شريكين في الأسرة، وإنّما هما شيء واحد اسمه الأُسرة. وقد جاءت النظرة إلى المرأة في كلمة السيد «البلاغي» ضمن هذا الإطار.

إن حقوق المرأة إزاء الرجل، والرجل إزاء المرأة تستتبعها قضيّتان أساسيّتان؛ إحداهما القول بأصالة الأسرة، والأخرى القول بأصالة المرأة بصفتها كياناً مستقلاً، بل وبصفتها قيمة إنسانية. وهذا يقف على العكس تماماً من التهم والافتراءات والهجمات التي يشنها ضد الإسلام الغربُ بنفسه أو على لسان أشباه المثقفين والمجددين لدينا، والوثائق التي يستدلون بها على ذلك هي المسلمين بدلاً من الإسلام، وهذا هو السبب الذي جعل لمنطقهم تأثير في بعض الأذهان. ولكننا لو عدنا إلى أصل الإسلام ومنطق الإسلام كما ورد في كلمة السيد «البلاغي» لتكشف لنا شيء واحد وهو: إلى أي حد اعتُبرت المرأة قيمة إنسانية؟ وأكثر ما تتجلى قيمة هذه النظرة فيما لو أجريت مقارنة بين ما يوليه الإسلام من إحترام جم لها وبين نمط النظرة التي تنظر بها إليها المدنيات والمدارس الأخرى؛ لأنه لا يتم للإنسان إدراك قيمة الشيء إلا عبر مقارنته مع غيره من الأشياء الأخرى.

قضية تعد الزوجات:

إن قضية تعدد الزوجات مسألة تستوجبها الظروف الإجتماعية والمراحل التاريخية في بعض الأحيان. ولكن مما يثير الأسى والأسف أن بعض الممارسات والتطبيقات العملية للأحكام الإسلامية في مجتمعاتنا كثيراً ما تتخذ طابعاً قبيحاً يتعذر تبريره أو الدفاع عنه، مما يجعله موضع اتهام في رأي الإنسان المثقف، بل ويبدو المثقف محقاً في إدانة وإستهجان أمثال هذه الممارسات. وبما أنه من غير الممكن ولا يرتجى أن يبادر الجميع إلى دراسة الظواهر الموجودة في واقع الحياة والتمييز بينها وبين جوهر وحقيقة الأحكام الإسلامية فقد أدى ذلك إلى أن ينظر إليها الجيل الشاب نظرة مريبة ومستهجنة، في حين أن الأحكام الإسلامية المطروحة بشأنها أحكام سامية ونبيلة وعلمية. ويمكن الإتيان بقضية تعدد الزوجات كنموذج لأمثال هذه القضايا.

الواقع الموجود في مجتمعنا حالياً في مجال تعدد الزوجات لا يخلو من النزوات الطائشة التي لا همَّ لها إلا إشباع الرغبات الجنسية. وعندما سألت أحد الأشخاص المتزوجين عدة نساء عن حكمة تعدد الزوجات، أجاب: إذا توفرت مستلزمات الزواج فيمكن للرجل أن يتزوج ما يشاء من النساء! هذه هي الحكمة في تعدد الزوجات لدى «المسلمين». في حين

أن تعدد الزوجات في الشريعة الإسلامية مناقض تماماً للواقع الموجود في الحياة. وذلك لأن تعدد الزوجات ضرورة تقتضيها الحالة الإجتماعية لا النزوات الجنسية، وهذا ما يتضح بكل جلاء من نصوص الآيات القرآنية التي شُرّع فيها تعدد الزوجات؛ حيث أشير فيها إلى مصير اليتامى، وهي قضية ذات أهمية بالغة أكدها القرآن كثيراً وخاصة في مجتمعات ذلك العصر الذي كان حافلاً بمخاطر كبرى تهدد مستقبل الأيتام تربوياً وإجتماعياً، بما في ذلك شؤون المأكل والملبس والحماية والاستقرار العائلي.

لا بدّ وأنكم على اطلاع بالظروف التي عانتها المرأة في ألمانيا بعد الحرب العالمية الثانية، ولا شك في أنكم سمعتم بالشعارات التي رفعتها الحركات والنقابات النسوية هناك ودعت فيها إلى قبل عدّة سنوات خلت إلى ازالة القيود المفروضة على الزواج. أنتم تعلمون طبعاً أن الحرب العالمية الثانية راح ضحيّتها ثمانية ملايين إنسان، ومن الطبيعي أن الغالبية العظمى منهم كانت من الرجال، كما أن التأثيرات التي تركتها في علاقة الرجل والمرأة وفي قضية الزواج كانت مشهودة بكل وضوح، والسبيل الوحيد لحل تلك المعضلة ـ كما توصّلوا إليه هم بأنفسهم ـ هو تعدد الزوجات.

كما أنني استندت في دراستي هذه إلى وثيقة حيّة، وهي عبارة عن كتاب من مجلدين أصدرته جبهة التحرير الجزائرية

أبان حربها ضد الإستعمار الفرنسي، خلال الفترة من سنة ١٩٥٤ إلى سنة ١٩٦١، والكتاب تحت عنوان «الجزائر من خلال الوثائق» ويضم بين دفّتيه مجموعة البيانات التي أصدرتها الجبهة حينذاك. ويبدو من المثير هنا أن نطرح على بساط بحثنا ما تضمنه أحد تلك البيانات، لأنه يكشف عن ستار الضرورة الإجتماعية لتعدد الزوجات، وخاصّة إذا كان المجتمع يخوض جهاداً بلا هوادة ضد الإستعمار أو ضد الإستبداد.

أشار ذلك البيان إلى الخسائر التي يتكبدها المجاهدون وكثرة من يسقط منهم شهداء في المعارك، وإن من أكبر المآسي التي برزت آنذاك هي أن الشخص الذي يستحق الحياة أكثر من غيره يقدّم حياته فداءً لعقيدته ولأمته، ويبقى أولاده وزوجته بلا كفيل ولا معيل. وهذا ظلم فادح لا يفوقه ظلم. وإنطلاقاً من هذا الواقع أصدرت قيادة الجبهة أمراً حضّت فيه المجاهدين ـ سواء المتزوجين منهم أم العازبين ـ على الزواج من أرامل الشهداء، وليحاولوا جهد الإمكان الزواج بنساء لديهن أكبر عدد من الأيتام. وحثّت الجبهة في ختام بيانها المجاهدين، حتى وإن كانوا متزوجين ولديهم أولاد، على الزواج من أرامل الشهداء لغرض تكفل أبنائهم. وهذا يدل على أن قضية تعدد الزوجات حالة تقتضيها ظروف معينة في المجتمع وفي زمن معيّن، وتختلف طبعاً عن الحالات الفردية التي أشار السيد «البلاغي» إلى نماذج منها.

زواج المتعة

أما الموضوع الذي أُنيط بي بحثه فهو موضوع زواج المتعة أو الزواج المؤقت، الذي يمكن النظر إليه كنموذج بارز لأحكام سارية في المجتمع، غير أن التطبيق العملي السائد له حالياً يتناقض كلياً مع جوهر وروح تلك الأحكام، ويثير اشمئزاز الإنسان المثقف إزائها. ولكنني أعتقد أن التحليل العلمي القائم على أسس علم الإجتماع وعلم النفس يثبت أن هذا النوع من الزواج أفضل حلّ، بل هو أسلوب الحل الوحيد للأسباب الجنسية التي يعاني منها جيل الشباب في عالم اليوم. وأرى أن هذا الموضوع، بما أثير حوله من تُهم، يجب أن يتمّ الدفاع عنه، كما ولا بدّ من إزالة التصورات الذهنية القبيحة التي يحملها البعض بشأنه، ليتخذ بعد ذلك مكانته الحقيقية بصفته أفضل حلّ لمعضلة الشباب في العالم كله، مع طرح الحكمة المبتغاة من وراء سَنّ مثل هذا التشريع. إلا أن هذه المهمّة تستلزم فرصة أوسع وإستعداداً ذهنياً أكبر.

لقد أُجيب هنا عن أكثر التساؤلات التي أثيرت بشأن موضوعات من قبيل الحجاب والطلاق وغيرها من الهموم ذات الأهمية البالغة وتسترعي التفات جميع الناس من الوجهة العلمية والدينية والإجتماعية؛ لأن المسؤولية التي تضطلع بها

هذه الندوة تتمثل في وضع حلول للقضايا التي تشغل الأذهان وتحتل حيّزها في الوسط الإجتماعي كمشكلة إجتماعية أو عملية، إلا أننا مضطرون لإرجاء البحث فيها إلى مجلس آخر على اعتبارها قضية عميقة وحساسة.

بما أنني معلّم لجيل الشباب، ونظراً لأن أغلبية الحاضرين هنا هم من الشباب ولا يكابدون من مشكلة تعدد الزوجات، لأنهم لم يصلوا إلى الآن حتّى إلى مرحلة الطلاق، ولأن الرسائل التي تصلني تباعاً تستدعي إلى الأذهان قصّة لا بدّ وأنكم سمعتم بها، وخلاصتها أن شاباً نبيهاً ضاق ذرعاً بحياة العزوبية فذهب لخطبة فتاة، فقال له والدها: حسناً سننظر في الأمر ونعطيك الجواب. عاود الفتى الكرّة بعد الظهر وسأل: ماذا قررتم؟ فرد عليه والد الفتاة: إنك لم تخطب يد الفتاة إلّا صباح هذا اليوم، فأعطنا فرصة لدراسة أوضاعك وظروفك، والتشاور مع أقاربنا حول هذا الزواج. ثم إنه جاء في الساعة الثامنة ليلاً مستعلماً عن النتيجة، فقال له والدها: اعلم يا فتى أنك مهما فعلت فلن تحظى بشيء من هذه الفتاة في هذه الليلة.

ومن حسن الحظ أن لدى الدكتور «سامي» مشروعاً مفيداً لأمثال هذا الفتى في هذه الليلة. من الطبيعي أن هذا الجيل، وهذه الفئة على وجه الخصوص، يتأمل الحصول على نتائج

عملية وحلول إجتماعية عملية للقضايا العقلية والعلمية والمسائل الإسلامية المطروحة على بساط البحث في هذه الندوة. وإذا بقيت هناك ثمة اشكالات، نرى أنفسنا وكأننا لم نؤد رسالته، وهذا لا يعني طبعاً إن هذا المشروع الذي أُعد وفقاً لموازين إسلامية وعلى بلاغات علمية وعقلية ـ كما أشار الدكتور «سامي» ـ هو الحل القاطع والمناسب تماماً، وإنما قُدّم كمشروع.

وعلى كل الأحوال فإننا ندعو كل من لديه إقتراح أو أسلوب حل أفضل للإدلاء برأيه وتقديم ما لديه من رؤى في هذا المجال، لعلنا نتوصل إلى أسلوب حل أفضل للمشكلة القائمة، وخاصّة بالنسبة للشباب المتمسكين بالمبادئ الدينية والأخلاقية، ولا يروق لهم نمط الزواج التقليدي الموروث في مجتمعنا(١)، ولا يؤمنون بالأسلوب الجديد الذي أخذ يشيع اليوم في الأوساط الإجتماعية فيما يخص قضايا الزواج سواء بالنسبة للرجل أم المرأة.

---

(١) كأن تذهب الأم أو الخالة أو بنت العم للخطوبة خفية وتشم إبط الفتاة ـ كما يقول السيد التستري ـ وتقرر أمر الزواج. حتى أن الطلبة الذين كانوا يدرسون في الخارج كان ذووهم يخطبون لأحدهم زوجة على هذا السياق، ثم يرسلونها إليه بعد أن يبعثون له برقية يذكرون فيها أنك ستجد في المطار امرأة تحمل كذا شيء في يدها وترتدي الحجاب مثلاً، فهذه هي زوجتك.

وهكذا أصبحت المشكلة التي يعاني منها أفضل الشباب والشابات الصالحين المؤمنين بالقِيَم الأخلاقية ويتمتعون بِقَدر عال من الثقافة والشعور، هي الفرصة المثلى للزواج واختيار الزوجة المناسبة، حتّى أصبحت أفضل الفتيات وأنسبهن للزواج وتكوين الأسرة أبعدهن عن الأنظار، وأضحى أفضل الشبان وأقدرهم على الزواج أدناهم حظاً وأقلهم فرصة في اختيار الزوجة المناسبة. وهذه مشكلة كبرى بالنسبة لهذه الفئة من الناس الذين نعتبر أنفسنا مسؤولين إزاءهم.

أعتقد أن أفضل هدية أستطيع تقديمها إلى هذا الجيل في هذه الليلة وأفضل خدمة أقدّمها لهم هي الانصراف عن بحثي وتقديم كلمتي قرباناً لهم.

الحجاب

الظاهرة المشتركة لدى جميع الآباء والأمهات هي انهم يبلّغون الدين بشكل وكأنّهم ينفخون في البوق من نهايته الأخرى. وهكذا يطرحون وصاياهم للشباب. ومثلهم في ذلك كمثل طبيب ـ أو أي شخص أخر ـ يوصي شخصاً جرحت شفته أو ظهرت في وجهه بثور: يجب أن. لا تظهر في وجهك بثور، ويجب أن. لا تنجرح شفتك. ثم يبدأ بشرح مساوئ جرح الشفَّة، ومدى أضرار التقرحات التي تصيب الوجه، وكيف تؤدي إلى تشويه البشرة، ثم لا يتورع عن الضغط على المقابل وتوجيه اللوم إليه.

ولكن ما جدوى هذا الأسلوب، حتى على افتراض صحّته؟ وما نتيجته؟

ولغرض البدء بالقضية من وجه آخر لا بدّ من استكناه العوامل التي أدت إلى ظهور هذه التقرحات في الحياة النفسية

لهذا الشاب ولهذا الجيل، ولا بدّ من معرفة جذورها. نذكر على سبيل المثال اننا ما إن نقول للطفل: هلمّ نذهب إلى الزيارة، نراه ينهض مسروراً ويتأهب بكل انشراح، وحتى إنه قد يسأل ايضاً: متى سنذهب إلى الزيارة مرّة أخرى؟

وهكذا الحال أيضاً بالنسبة إلى مجلس قراءة القرآن والصلاة والصوم. ولكن هذا العزم والاندفاع نحو الأمور الدينية يبدأ بالتلاشي من الغد، ويضمحل بعد الغد أكثر فأكثر. ثم نبدأ بالأخذ بتلابيبه ونبدأ بدعوته بالشدّة أو اللين، وبأسلوب أو آخر لكي يصلّي مثلما كان يصلي في الماضي، أو ندعو الفتاة لارتداء ثياب محتشمة كما كانت تفعل في الماضي، وندعوهما إلى اداء تلك الفرائض والإهتمام بها. ولكن نجد أن موقفهما ازاء هذه الدعوات كموقف شخص حصل خلل في دمه وظهرت آثاره على وجهه وبشرته، ونحن نقول لهما: يجب أن تكونا سالمين معافين. دون أن ننظر في الأسباب التي دفعته إلى النفور من هذه الأعمال. وهذا هو ما ينبغي أن ننظر في جذوره ونبحث عن أسبابه.

أنا لا أتحدث هنا بصفتي شخصاً يملك معلومات واسعة، أو شخصاً قرأ كتباً كثيرة، وإنما بصفتي معلماً أمضيت في هذه المهنة سنوات طويلة وقضيت حياتي الإجتماعية على الدوام بين

الناس وبين الشباب خاصة. وكان عملي وفكري وحياتي الخاصة والعامة شيئاً واحداً وترعرعت طوال حياتي بين أبناء هذا الجيل. وأنا أعيش وأتعاطى معه منذ أن كنت تلميذاً وإلى أن أصبحت طالباً جامعياً وحتى صرت معلماً وإلى يومي هذا. وهذه هي النتيجة التي استخلصتها من تجربتي العملية التي تفوق في قيمتها ألف نظرية علمية؛ بمعنى أنني عشت هذا الميدان عملياً وخلصتُ إلى هذه النتيجة، ورأيت آلاف الحالات التي تصرف فيها الأولياء على هذه الشاكلة ولم يجنوا إلّا نتائج عكسية، وبلغت الأمور حداً مزرياً حيث أخذ الآباء والأمهات يضغطون على اولادهم إنطلاقاً من موقع الأبوّة أو الأمومة، لغرض اعادتهم بالإكراه إلى الصلاة والحجاب والزيارة وغيرها دون النظر في الأمور التي قادت إلى اضعاف الحوافز الدينية لدى اولادهم، وجعلتهم ينقطعون عن الصلاة وتنبذ الفتيات الحجاب وغير ذلك من شعائر الدين ومظاهره. وإذا كان لدى هذا الأب والأم مقدرة على ارغام ولدهما على الإنصياع لأوامرهما ولا يجد أمامه بداً من السمع والطاعة، فإنّهما حينذاك يغرسان في نفسه عقدة النفور إلى الأبد من الدين، وتصل به الأمور انه عندما يقف للصلاة يشتم أباه وأمه بدلاً من التضرّع إلى الله ومناجاته والابتهال إليه.

نيابة عن الملك

دخلت ذات مرة إلى أحد المحلات التجارية في المدينة المنورة لشراء شيءٍ ما وبدأت أتحدث مع صاحب المحل؛ اذ وجدته شخصاً مثقفاً ويجيد اللغة الإنجليزية وتشعّب بنا الكلام إلى أوضاع العربية السعودية والإسلام وغير ذلك. وكان في بداية الأمر يشيد بهذا الملك أو ذاك. ولكن بعدما انسجمنا لاحظت انه يفكر على نحو آخر. وأخذ الانسجام والتآلف يزداد بيننا حتّى انه أخذ يصرف الزبائن؛ أي إنه بدأ يرجح الحديث معي على بيع السلع للحجاج. وفجأة تناهى إلى اسماعنا صوت الأذان من المسجد (وكان الموسم موسم حج). وما إن سمع صوت الأذان حتّى نهض وقال: الصلاة، الصلاة. فقلت له: حسناً سنذهب إلى الصلاة معاً. قال: سنتحدث في الطريق.

أخذتني الدهشة عندما رأيته على تلك العجلة والسرعة؛ اذ كيف يمكن لمثل هذا الإنسان المتنور المطّلع على شؤون العالم الإسلامي، والبلدان العربية ـ على الأقل ـ أن يكون دقيقاً إلى هذا المدى! ذهبت معه؛ فرأيت انه وقف للصلاة بلا وضوء وقال: اصلّي صلاة الظهر اربع ركعات نيابة عن الملك فيصل قربة إلى الله!

إذاً فالولد الذي يرغم على الصلاة يصبح على هذه

الشاكلة، وتصبح صلاته على هذا النحو. ولا أدري من يرضى بهذا الوضع وبهذا العمل. فمن الطبيعي أن الولد الذي ينشأ على هذا النمط من السلوك بمجرّد أن يزول عنه ظل الأب سيثأر من تلك الأيام بعنف وقسوة. فعلى الرغم انه كان هناك يقول سمعاً وطاعة، إلّا أن المشهد يتغيّر تماماً بمجرّد أن يخرج إلى الشارع.

في الحارة التي كنت أسكن فيها قبل عدّة سنوات، كان هناك شخص يخرج من البيت كل يوم بظاهر «إسلامي» ولكنه بعد أن يلج إلى خربة قرب شباك غرفتي يتحول هناك بسرعة الضوء إلى شخص من طراز آخر، حيث يخلع تلك الأشياء التي كان يرتديها ويضعها في حقيبته ويصبح إنساناً حديثاً جداً. وعند العودة يدخل تلك الخربة ايضاً ويبدّل زيّه بسرعة ثم يتوجّه إلى البيت. وهذا هو ما يُسمى إزدواج الشخصية بمعنى أن الإنسان يعيش بشخصيتين، ويمارس نوعين من الحياة وهذا معناه النفاق والرياء وزيف وجود الإنسان (لا يعني الكذب في القول فقط، بل يعني كذب وزيف وجود الإنسان)، والظهور بشكل هو أقرب ما يكون إلى سقوط المرء وانحطاطه.

إذا كان الأب والأم لا يتحليان بالشجاعة فإن الطفل قد يقف قبالتهما ويتلفظ بآلاف الكلمات النابية، ولا يجدان عندئذ أي طريق للتعامل معه وتقويم سلوكه.

ما العمل..؟

إذاً ما الذي ينبغي عمله؟ هناك طبعاً التجربة التي املكها بصفتي معلماً، وهذه التجربة تكررت حتى في الإسلام. المعروف أن رسول الله (ص) لم يبلغ احكام وعقائد رسالته خلال سنة واحدة، بل طرحها تدريجياً على مدى ٢٣ سنة؛ فطرح اولاً مسألة التوحيد «قولوا لا إله إلّا الله تفلحوا» وبقي يركز على هذه المهمة مدّة ثلاث سنوات من غير أن يضيف إليها كلمة أخرى. ولم تكن هناك حينها صلاة ولا صوم ولا حج ولا زكاة، ولا قيود ولا حدود. كان هناك شيئاً واحداً فقط وهو امر فكري يتلخص في إخراج الإعتقاد بالأصنام من أذهانهم وغرس الإيمان بالله في نفوسهم. وهذا يعني ان الأشخاص الذين اسلموا في السنة الأولى وآمنوا بالتوحيد وتوفوا، ربّما كانوا يشربون الخمر ولا يصلّون ولا يصومون ولم يحجوا ولم يجاهدوا، بل لعلهم كانوا يأكلون الربا وذلك لأن حرمة الربا اعلنها الرسول (ص) في حجة الوداع. حتى ان ربا ابن عباس أُلغي، وكل من كان له رباً لابن عباس، وضعه عنه الرسول (ص). ولكن متى كان ذلك؟ كان بعد ٢٣ سنة؛ أي في آخر حياة الرسول. والملاحظ هنا هو أن الرسول (ص) عالج الأمور تدريجياً وبدأ بها خطوة فخطوة؛ فقد ركز جهوده في بداية الأمر على ارساء رؤية كونية وعقيدة، وغرس في عقول ابناء جيله

فكراً. وعندما انتشر ذلك الفكر وتجذر في الأذهان أصبحت نفوس القوم مهيئة للخطوة الأخرى والقيام بعمل آخر أو الإصغاء لكلام آخر؛ فكانوا يطلبون وهو يجيب بناء على طلبهم كانوا يقولون له مثلاً اننا اصبحنا جماعة ذات اندفاع ووعي فكري ومستعدون للصلاة. وهكذا أخذوا يصلون. وكانت الصلاة في اول الأمر ركعتين، ثم تكاملت. وفي المرحلة التالية طرحت قضية الجهاد، ولم يكن الجهاد حينذاك في صيغة الهجوم على الكفار، بل في صيغة أن من يتعرض للظلم يحق له الدفاع عن نفسه. ولكن متى طرح هذا المفهوم؟ في السنة الثانية عشرة أو الثالثة عشرة، أي قبل بضعة اشهر من الهجرة إلى المدينة.

وبعد الهجرة إلى المدينة صارت تطرح ابتداءً من السنة الثانية مسألة جهاد العدو. وفي السنة الثالثة عرضت فكرة الخمس على الغنائم؛ أي أن هذه الجماعة اصبحت على درجة من الإيمان بحيث صارت مستعدة لتقديم ضريبة على اموالها. ومن الطبيعي أن كل شخص كان قبل نزول هذا الحكم يستحوذ على كل ما يحصل عليه؛ وهذا يعني انهم لم يكونوا قبل ذلك على درجة من النضج بحيث يتقبّلون التنازل عن قسم من أموالهم.

مسألة الحجاب وإشكالية الزي

وفي اعقاب ذلك؛ أي في السنة السابعة أو الثامنة من الهجرة طرحت مسألة الحجاب. وهذا يعني أن مسألة الحجاب قد طرحت بعد ما يقارب عشرين سنة من الجهود التي بذلها الرسول لإعداد اولئك القوم. وهكذا الحال بالنسبة إلى مسألة شرب الخمر أيضاً. فالرسول لم يأمر المسلمين بترك شرب الخمر منذ البداية، ولم يقل لهم يا أيها الناس ويا أيها العرب ما دمتم تعتقدون بالتوحيد يجب أن تكون جميع أعمالكم صالحة وصحيحة، وانما طرح هذه المسألة في السنوات الأخيرة من بعثته وعلى ثلاثة مراحل، ووفقاً لمنهج تربوي وليس عن طريق الإكراه.

في المرحلة الأولى صار الرسول يقول لهم ﴿لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾[1]. في هذه المرحلة لم يحرم عليهم الخمر كلياً وانما امرهم أن لا يرتادوا المساجد أو اماكن الصلاة وهم سكارى يتأرجحون ورائحة الخمر تفوح من افواههم. ومن الطبيعي في مثل هذه الحالة أن يلقى هذا الشرط آذاناً صاغية حتى من قبل شارب الخمر ما دام فيه احترام لأمر مقدّس ولموقف جماعي، حتى وان اضطر إلى شرب الخمر ليلاً بدلاً

---

(١) سورة النساء، الآية: ٤٣.

من شربه في النهار. وذلك لأنه يعلم بانه لا يستطيع شرب الخمر في النهار؛ فلو شربه في الصباح لبقيت رائحته في فمه حتى الظهر، حيث ينبغي أن يأتي الجميع إلى المسجد. وإذا شرب بعد صلاة الظهر تبقى رائحته إلى حين حلول صلاة العصر بعد ساعتين ونصف؛ أي عند ما يقارب الساعة الثالثة أو الثالثة والنصف. وإذا فكر في شرب الخمر بعد صلاة العصر ستبقى رائحته في فمه إلى حين حلول وقت صلاة المغرب بعد ساعتين أو اربع ساعات. ولو حاول أن يشرب بعد المغرب سيحل وقت صلاة العشاء بعد ساعتين ونصف من ذلك ايضاً. فإذا أراد الشخص شرب الخمر فلا مجال لديه إلّا بعد الساعة الثامنة أو التاسعة ليلاً. حيث يكون حينذاك في داره. وهذا يعني أن الرسول (ص) قد قضى على الفساد الإجتماعي المرافق لظاهرة شرب الخمر، دون أن يضغط على الناس مباشرة.

ثم جاءت المرحلة التالية تدريجياً وكانت تنطوي على عتاب رقيق كما جاء في الآية الشريفة ﴿فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾[1]. وكأن الرسول يريد أن يقول في هذه الآية انني لست شخصاً متعصباً ولا جاهلاً لقيمة الخمر ومنفعتها، ولكن ضررها أكثر.

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٩.

في مثل هذه الحالة يجد المرء نفسه ملزماً بالإصغاء إلى كلام مثل هذا الإنسان المتنور الفاهم البعيد عن التعصب، الذي لا يرى في الشراب عفريتاً نجساً أو جناً أو شيئاً غيبياً، بل يعترف بفوائده ولكنه يرفضه بسبب ما يترتب عليه من أضرار إجتماعية وبشرية. لكن أحداً لا يصغي إلى كلام الملا الذي يقول: الموسيقى حرام. وهو لم يسمع الموسيقى طيلة حياته وحتى لو سمعها فإنه لا يفهمها. وكذلك الشخص الذي يقول أن الغناء حرام وهو لا يعرف ما الغناء. فالذي يقول أن الموسيقى حرام هل يستطيع التمييز بين الموسيقى الحماسية أو الموسيقى الوطنية أو الموسيقى العلمية؟ وهل يعلم أن للموسيقى فروع، وتاريخ، وتأثيرات شتّى؟ لهذا السبب عندما يفتي بحرمة الموسيقى لا أحد يصغي لفتواه؛ لأنه لا يفهم حقيقة الشيء الذي يفتي فيه.

فالله تعالى يقول أن في الخمر منافع للناس ولكن يجب الامتناع عن شربه لأن ضرره أكثر. ومعنى ذلك أنه هيّأ الأجواء المناسبة للتعامل مع هذا الموضوع حيث انتقده من ناحية وقيد استعماله من وجهة النظر العلمية من ناحية أخرى.

وعندما بلغت الدعوة الإسلامية ذروة تكاملها وطرحت مفاهيم الجهاد والشهادة والفتح، جاء الأمر الالهي هذه المرة

قاطعاً وحاسماً: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ﴾[١].

لقد حان الوقت الآن لمكافحة الشراب والقمار بعدما عمل الرسول مدة عشرين سنة لتهيئة نفوس المسلمين لمثل هذا الأمر. أخذ الناس يومها يريقون الخمر وأوانيه في الشوارع. ونقل المؤرخون أن شوارع المدينة امتلأت يومذاك بآنيات الخمر وكؤوسه ولم يبق شيء منها في البيوت، بدون حاجة لقوى الشرطة أو جماعات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وقد بادر الناس إلى هذا العمل بطوع ارادتهم وبكلمة واحدة. وكان السبب في نجاح هذه المهمة هو انها بنيت على منهج علمي وأسلوب صحيح. في حين اننا عندما نتعامل مع الآخرين نسارع إلى وصفهم بكلمات مثل نجس! وكافر! فلا يجد المقابل أمامه من سبيل إلّا الرد بكلمات مثل: اريد أن اكون كافراً، ولكن إذا كنت انت مؤمناً ما هو الفارق بيني وبينك؟ وإذا كنت نجساً فإنني استحم كل يوم مرّة، بينما انت لا تستحم إلّا عند الجنابة. في مثل هذه الحالة يبقى المرء ساكتاً لا يجيد جواباً. إذاً يجب على المرء أن لا يدخل مثل هذه الطرق المغلقة.

هذه هي التجربة العلمية الصحيحة. وقد استخلصت

(١) سورة المائدة، الآية: ٩٠.

التجربة الثانية من خلال عملي في سلك التعليم. فأنا طيلة هذه السنوات التي عملت فيها في سلك التعليم، كتبت وتحدثت حول مجمل المسائل الدينية، ولكن لا توجد في كتاباتي ولا في اشرطتي نصائح مباشرة للشباب حول كيفية الثياب التي ينبغي ارتداؤها، ولا فيها دعوة مباشرة إلى الصلاة أو إلى ارتداء الحجاب. وذلك لأن هذا الكلام يعني النفخ في البوق من فوهته العريضة.

كانت هناك في حسينية الإرشاد تجربة يجب على الكثيرين الإطلاع عليها، وهي أن بعض السيّدات اللواتي كنَّ يأتين إلى هنا لتسجيل اسمائهن في الدورات التثقيفية التي كانت تقام فيها، كن سافرات ويرتدين ثياباً من آخر التقليعات، وكانت مظاهرهن تبعث الرعب في قلوب الأشخاص المكلفين بتسجيل الأسماء، فيعرب أحدهم عن تذمّره ويظهر الآخر خوفه، ويتذرع ثالث بعدم وجود مجال. كان بعض المسؤولين عن الحسينية متعصبين، وقد أخذتهم الحيرة ولم يعرفوا كيفية التصرّف مع هذا الموقف. فبادر بعضهم إلى الإتيان بعباءات ومقانع، وأخذوا يلتمسون اولئك النسوة ارتداءها. فكان بعضهن يأخذن تلك الثياب ويرمينها جانباً، وكان بعضهن...

ورغم انني لم اتحدث عن امثال هذه الموضوعات اطلاقاً إلّا انني وجميع المسؤولين عن الحسينية وجدنا أن الفتيات

اللائي يتمسكن بالحجاب الإسلامي بدقّة كنَّ في ما مضى من السافرات.

ما هي يا تُرى الأسباب الكامنة وراء ذلك؟ من المعروف أن للحجاب معنيين متضادين كما هو الحال بالنسبة إلى اللحية. فلو شئنا اعتبار اللحية رمزاً مطلقاً للتديّن، فلا شك في أن جميع الهيبيين في امريكا متدينون من الطراز الأول! وهكذا الحال بالنسبة إلى الحجاب أيضاً. والمطلوب هو أن نبيّن للفتاة معنى الحجاب وحقيقته، ولا داعي بعدئذ أن نشرح لها ما ينبغي عمله وما لا ينبغي، اذ ستفهم تلقائياً ما ينبغي عمله، وستجد نفسها عندئذ أمام خيار وليس أمام أمر يُفرض عليها فرضاً؛ لأنها عندما تشعر بوجود ما يفرض عليها ستتخذ موقفاً متعنتاً.

الحقيقة هي أن مثل هذه المرأة عندما تأتي إلى مثل هذا المكان، تأتي عادة بلا دين، ولا تنتمي إلى معتقد معين، بل قد تأتي تحمل معها فكراً مناهضاً للدين، وعادة تكون قدوتها ومثالها الذي تحتذي به هو المرأة الغربية الحديثة، وهي تتغنى بها وتذكرها في كل مجلس وناد، وتجدها حيثما تذهب، في الصحف وفي التلفزيون وفي الإذاعة، وتسمع اصداء مُثُلها على الصعيد العالمي في هولندا وباريس وفي فندق شيراتون، حتى ان مثل هذه المرأة ملأت كل آفاق حياتها وغدت صنمها الذي تعبده. فما العمل؟ هل ادعو هذه الفتاة إلى السير على طريق

السيّدة زينب؟ كلا فهذا هراء وكلام فارغ لا فائدة من ورائه.

فما الحل إذاً؟ وكيف يمكن تغيير هذه الفتاة؟ من الطبيعي أن هذا التغيير لا يتحقق إلّا باقتلاع جذور علاقتها مع ذلك الصنم من ذهنها. فلا أحد اليوم يعبد اللات وعزّى، وانما الأصنام التي تعبد اليوم هي من هذا القبيل.

ولكن كيف يتسنى لنا تحطيم هذا الصنم؟ يتسنى لنا عندما نقدّم لها قيماً افضل من قيم تلك الفتاة الحديثة، وعندما تجد في نفسها انشداداً إلى هذه القيم. ومن الطبيعي انها عندما تؤمن بهذه القيم الأفضل والأمثل ستندفع تلقائياً إلى التمسك بجميع رموزها، وتنتقي الخيار الأمثل، من غير شعور بالدونية.

وهذا الأمر لا يقتصر على الإسلام فحسب، بل موجود على امتداد التاريخ البشري، اذ لدينا اشعار عن الهند والصين والسند وسمرقند وعن كل مكان. فقد كانت الفتاة الصينية عبارة عن دمية ملوّنة تتواضع لها كل نساء العالم؛ وذلك لأنها كانت بارعة في تزويق نفسها. قال حافظ قبل سبعمائة سنة:

الصنم الصيني عدو للدين وللقلب   نسأل الله حفظ الدين والقلب[1]

حافظ الذي عاش في ذلك العصر لم تكن له علاقة بالشرق

---

(١) أصل الشعر باللغة الفارسية هو:

بت جيني عدو دين ودلها   خداوندا دل ودين را نكهدار

الأقصى. علامَ يطري هذا الرجل الذي كان يعيش في شيراز؟ يطري على جمال امرأة صينية! وهذا يدل على أن جمال المرأة الصينية وتزيينها لنفسها قد فرض نفسه على العالم كله. توجد في اللغة الصينية كتب يعود تاريخها إلى ما قبل ٤٨٠٠ سنة ومنها كتاب مخصص لموضوع النظام الغذائي الذي يجب أن تتبعه المرأة للحفاظ على جمال بدنها، وهو كتاب مدوّن على حدة وليس ضمن كتاب آخر! وتوجد عدّة كتب أخرى تعود إلى ما قبل ٤٠٠٠ سنة تتحدث عن موضوعات الإغراء والإثارة والفتنة! لم يكتب الفرنسيون نظيراً لها حتى الآن. وألّف فلاسفتهم كتباً ضخمة عن مبادئ الإغراء التي يجب أن تتعلمها المرأة والأصول العلمية للنظرات والغمزات. وهذا يعني أن هذه الموضوعات اتخذت طابعاً علمياً وفلسفياً. وفيه دلالة على مدى إهتمام وتقدّم المرأة في تجميل نفسها.

فما هو الباعث الذي ادى بهذه المرأة نفسها إلى أن ترتدي اليوم ثياباً من الجوت ولا تشعر بالدونية أمام امرأة فرنسية قضت من عمرها البالغ عشرين سنة، سبع عشرة سنة على الأقل أمام المرآة، بل بالعكس تشعر بالتفوق عليها. يعود سبب ذلك إلى أن المرأة الصينية تعتبر نفسها اليوم امرأة ثورية وعقائدية ولا ترى في المرأة الفرنسية إلّا دمية متحركة ذات طبيعة برجوازية، ولهذا تعتبر نفسها افضل منها بكثير.

ينبغي اليوم معرفة الأسباب التي جعلت المرأة الصينية التي تعتبر ذات ماض عريق في تزيين نفسها ـ وتبذير كمية كبيرة من الألوان على نفسها ـ تظهر أمامنا اليوم على هذه الصورة في القرن العشرين بحيث تستهين بالفتاة الأوروبية.

قاطعه أحد الحاضرين: انه التكامل.

الدكتور: التكامل لا بدّ أن يكون له معنىً خاصاً. وما الذي اوجد هذا التكامل؟ فالإنسان الصيني لازال متخلفاً ولم تصل ثقافته إلى مستوى الثقافة الفرنسية، ولا ترقى حضارته إلى حضارة فرنسا، ولا برقى اقتصاد بلاده إلى اقتصاد فرنسا، ولا بلده متطور بقدر تطور فرنسا. فأين الصيني من الفرنسي؟ وانما يعود الفضل في ذلك إلى الآيديولوجية والقيم الآيديولوجية. فهذه البدلة وهذه الثياب الخشنة التي ترتديها المرأة الصينية لا تمثل زيّها التقليدي الذي ورثته عن امّها وأبيها، ولا هو زي الفقر والفاقة الذي يأنف منه المرء ويضطر إلى استعارة ثياب فاخرة لكي لا يتصور الآخرون بأنه متخلف. فهذا الزي ليس زيها التقليدي، ولا هو زي طبقتها وانما هو زي فكرها، وكأنها من خلال ذلك تريد القول بأن هذا الزي يمثّل انتمائي إلى منهج فكري معين، ويجسد نضالي في سبيل هذا المنهج. ولكن إلى أي شيء ترمز ثيابك انت؟ انها ترمز بطبيعة الحال إلى مقدار

اموال ابيك أو زوجك أو اموالك التي تحصلين عليها. إذاً فهي على كل حال ترمز إلى المال، بينما ثيابي ترمز إلى منهجي الفكري. وهذا يعني انني ارتدي زياً فكرياً وعقائدياً بينما ترتدين انت زياً قوامه المال. إذاً فكل قيمك محصورة في اطار ما تملكه أسرتك من اموال، بينما تتجسد قيمي في اعتقادي وفي منهج تفكيري. وهذا ما يجعل هذه المرأة تشعر بالتفوق على تلك ولا تحس أمامها بعقدة الدونية أو الحقارة.

هذا المثل الذي سقناه يتحدث عن مجتمع آخر، ولكن ما هو المثل الذي ينطبق على مجتمعنا؟

تغيّر القيم

أنتنَّ أيتها النسوة تنتمين إلى هذا المجتمع. لاحظن إلى أي مدىً تغيرت القيم. فقبل ١٥ سنة أو حتى إلى ما قبل سبع أو ثماني سنوات كان يُنظر إلى الفتاة المحجبة في الجامعة على انها شديدة التعصب. وكان هذا يعني بطبيعة الحال أن أسرتها متخلّفة إجتماعياً وثقافياً وحضارياً وما إلى ذلك. أو انها على الصعيد الإقتصادي فقيرة جداً إلى درجة انها تتخذ من العباءة ستراً لعيوبها ولما ترتديه من ثباب رثّة أو ثياب لا تتماشى مع الموضة. ولا يوجد احتمال ثالث يبرر وضع مثل هذه الفتاة. وهذا يعني تلقائياً أن السافرة كانت تشعر بالتفوق على المحجبة،

والأخيرة تشعر بالحقارة والدونية ازاء الأولى. وكانت السافرة تندفع إلى مجاراة آخر التقليعات وأحدث الأزياء ومواكبة آخر ما يدخل الأسواق الأوروبية من الملابس. وبعد مضي مدّة من الزمن تنكشف على حقيقتها ويتضح من اين اشترت تلك الثياب؛ اذ ان هناك فارق بين أن تكون قد اشترتها من الأسواق الشعبية أو محلات تجارية راقية. ومن الطبيعي أن ذلك الوضع كان يعني فيما يعنيه أن الفتاة المحجبة تجهل القيم الحديثة وتنتمي إلى قيم تمر في طور الإضمحلال والزوال، وترتبط بثقافة متخلفة وبائدة.

لقد انطوت حالياً تلك المرحلة وجاء عهد ظهر فيه الإسلام من جديد لا كتقليد موروث بل كآيديولوجية جديدة ومسؤولية إنسانية مستجدة. ثم ظهر انعكاسه فوراً في سلوك الفتيات، حيث تغيرت في الوقت الحاضر الفتيات اللائي كن بالأمس يتظاهرن بالحداثة ومواكبة أحدث الموديلات.

أصبحت أرى نفسي اليوم وكأنني أتصرّف كقسيس تطرح عليه الاعترافات والشؤون العائلية الخاصّة.. (وهم على اية حال كانوا تلاميذي واصدقائي).

في السنوات السابقة كانت اغلب احاديثي تدور حول الآباء والأمهات الذين يشكون لي حيثما ومتى ما رأوني، تطرف

ابنائهم في تقليد النزعة الغربية ومواكبة آخر موضات الأزياء، وما تسببه هذه الظاهرة من مشاكل للأسرة أمام الجيران والأصدقاء. اما حالياً فإن اولئك الأشخاص انفسهم يأتون الآن ويشكون من تطرف ابنائهم في العودة إلى القيم الدينية ومحاربتهم للمظاهر الغربية. والحقيقة هي ان هذا الإنسان لم يتغير، والشخص الذي يستهويه هذا الزي، هو نفس الشخص الذي كانت تستهويه بالأمس الأزياء الغربية. والشيء الوحيد الذي تغير هو القيم. فالفتاة كانت في السابق ترى أن الحجاب ينتمي إلى تقليد رجعي، بينما ترى اليوم انه يرمز إلى آيديولوجية إنسانية جديدة. وكلا هذين الرأيين مرتبط بالدين؛ الأول يرى أن الدين تقليد موروث من الماضي وظل متعلقاً بأذيالنا ولا يمكن فرضه بالقوة على الجيل الجديد.

إن آيديولوجيّتنا دينية، وآيديولوجيّته ليست دينية... ولكن ما معنى هذا الكلام؟ معناه أن التجربة قد اثبتت عدم امكانية التذرع برأي ديني معيّن لفرض الحجاب والعبادة على الفتيات إلّا في ظل توفر الوعي الإنساني، وهذه الأمور ترمز إلى منهج فكري معين.

هل يرى العامّة من الناس في مجتمعنا أن الحجاب يمثل منهجاً فكرياً خاصاً؟ كلا، انه لا يمثل منهجاً فكرياً خاصاً، بل يُنظر إليه كنمط خاص يضم المؤمنة والفاسقة وسواهما من

الصالحات والطالحات، وقد ترتديه امرأة من انصار اليمين أو من دعاة اليسار، وما إلى ذلك. فهذا الزي يمثل عند الناس زياً موروثاً وليس زياً عقائدياً. ونحن نرى أن العباءة ترمز إلى زي عقائدي وتمثل زياً إسلامياً لدى الجيل الجديد الذي أخذ يتجه نحو الإسلام حديثاً.

من الطبيعي أن العباءة شيء والحجاب شيء آخر، والعباءة زي وشكل من أشكال الحجاب.

نظرتان حول مسألة الحجاب

أساس القضية التي نريد التحدث عنها هنا هي الدوافع الكامنة وراء رغبة الفتاة بارتداء الحجاب. تقسم هذه الدوافع إلى نوعين: أحدهما يرى أن الحجاب يمثل تماشياً مع التقاليد السائدة بين الأمهات والعمات والخالات وعموم البيئة الإجتماعية. فهو إذاً لباس تقليدي موروث، ويرمز بطبيعة الحال إلى الطبقة المتخلفة التي تعيش اليوم في حالة الإحتضار وتسير نحو الزوال والإنقراض، وتطورها وتكاملها يكمن في نبذ هذا الحجاب. وهذا ما هو حاصل فعلاً ولا يمكن الوقوف بوجهه، ولن يدوم هذا الحجاب التقليدي أكثر من عشر سنوات ولن يبقى له وجود. وهذا يعني أن تطور المجتمع رهين بنبذ الحجاب الذي يرمز إلى تقاليد سالفة وموروثة.

اما النوع الآخر من الحجاب فيتصف بنفس الشكل ايضاً ولكنه يرمز إلى أن الفتاة التي ترتديه تحمل نموذجاً من التفكير العقائدي الديني الخاص. والحجاب بمعناه الأول الذي يرمز إلى التقاليد الموروثة ويوحي في ما يوحي إلى انني املك مثل ما يملك الآخرون، ولي مثل ما لهم من ثياب وحذاء وكل شيء. ولكنه ـ أي الحجاب التقليدي ـ لا يرمزُ إلى اية قيم إنسانية، وانما هو عبارة عن عادة متوارثة عن السالفين. وفي مثل هذه الحالة إذا درست المرأة يزداد فهمها على قدر دراستها. وعندما تسافر إلى اماكن أخرى تلاحظ أن النساء السافرات هناك لا يصيبهن أي اذى. وبالنتيجة لا تتورع هذه المرأة ـ التي كانت ترى في الماضي أي نقص في حجابها شيناً عليها ـ عن نبذ الحجاب كلياً. أي أن المرأة إذا تعلمت قليلاً تتخلى عن الحجاب. إلّا أن نعمل بها عملاً خفياً لا يعلمه أحد للإبقاء على هذا الحجاب. اما الحجاب الذي يتمسك به الجيل الواعي فيرمز للزي الإسلامي. فهذا الجيل من الفتيات يرتدي الزي الإسلامي ليعلن للإستعمار الغربي وللثقافة الأوروبية: انك تحايلت ٥٠ سنة ورسمت المخططات لإدخالي في الثقافة الغربية وانا اقول لك بزيي هذا: لا، ولتسقط جميع مخططاتك وما فعلته على مدى ٥٠ سنة، ولن يتسنى لك أن تغيّرني.

فهل هذا الحجاب مشابه لذاك؟ نحن هنا لا نتحدث عن

العباءة والفوطة، والمقنعة، وانما نتحدث عن المظهر الإجتماعي والإنساني. فإلى أي شيء ترمز الفتاة التي تختار ارتداء الحجاب عن وعي؟ من الطبيعي انها ترمز إلى ثقافة معينة، وإتجاه فكري معين، ولها وزنها وقيمتها. ومن الطبيعي أن المرء لا يشعر بالدونية ازاء الفتاة التي لا تملك مثل هذا الفهم أو لا تنظر إلى الحجاب نظرة مبدئية، بل بالعكس قد يشعر بالتفوق والأفضلية عليها.

سألني شخص ذات مرّة عن الحجاب (وكان غرضه من وراء ذلك السؤال أن اطعن بالحجاب لكي يتخذ قولي مستمسكاً ويهرّج ضدي في الأسواق)، فقلت له بصراحة أن الحجاب هو كما تقول، والله اني لست فقيهاً ولا بزازاً، وانما انا عالم إجتماع. فسألني: وما هو رأي علم الإجتماع بالحجاب؟ قلت: حسناً، ان عالم الإجتماع لا شأن له بقماش الحجاب وانما يتعاطى مع الإنسان الذي في ذلك القماش. قال: نعم اقصد ذلك... وبقي يلف ويدور لينتزع مني كلمة ما. فقلت له: ان جواب سؤالك عندي؛ لأن هذا الموضوع يدخل ضمن اختصاصي. وخلاصة القول هي انك لو رسمت الشعب الإيراني على شكل مخروط ستكون قاعدته إلى الأسفل، وهؤلاء هم أكثرية الشعب الإيراني، وهم اناس بسطاء ويحملون فكراً متخلفاً، ونساؤهم يرتدين الحجاب. ولكن ماذا يمثل هذا

الحجاب؟ وعلامَ يدل؟ يدل على انهم اناس متخلفين وغير متعلمين ولا متحضرين ولا معرفة لهم بالعالم الحديث، وأنهم ما زالوا يعيشون في عهد البوق، وهم ورثة عهد ناصر الدين شاه[١] الذي يعتبر رمزاً للتخلف. ولو اعطيت أحدهم جوازاً لذهب وعاد اليك اشبه ما يكون بـ «كريستيان ديفر»[٢]

اما الشريحة التي تقع فوق قاعدة المخروط قليلاً فهي عبارة عن فئة من المتعلمين وأكثرهم من اصحاب الدراسات العليا. ويجيدون قليلاً من اللغة الإنجليزية، ولديهم معلومات عن العالم وقد شاهدوا صوراً اجنبية، وربّما سافروا إلى الخارج ورأوا الأجانب. وخلاصة الكلام انهم يعلمون ماذا يعني القرن العشرين. وهم يعيشون حياة إجتماعية جيّدة. نساء هذه الشريحة الإجتماعية سافرات.

اما قمة المخروط فتقع فيه شريحة إجتماعية متطورة وهي آخذة بالتزايد (ونحن هنا نتحدث عن النساء بشكل خاص). والنساء في هذه الشريحة ينتمين إلى الجيل الجديد ويقفن في الصفوف الأولى لثقافتنا وهن من المتعلمات اللائي درسن أو لازلن يدرسن في مراحل عليا أو ادنى منها. وعلى العموم فإن

---

(١) ناصر الدين شاه (١٨٣١ ـ ١٨٩٦) شاه إيراني في عهده انتشرت البهائية. «الناشر».

(٢) لم نعثر على ترجمته «الناشر».

نساء هذه الطبقة من المتعلمات اللائي تجاوزن مرحلة التمدن أو الرؤية العلمية، وبلغن مرحلة اعلى من نيل شهادة الإعدادية والبكلوريوس أو ممارسة مهنة الطب أو الهندسة.

إذاً إلى أية مرحلة وصلت هذه الشريحة من النساء؟ وصلن إلى مرحلة الإيمان بخط فكري، وتحمل المسؤولية، واتخاذ الموقف الصحيح. وهذه المرحلة أرقى من شهادة الإعدادية أو البكالوريوس. بعض الأشخاص قد يحصل على الشهادة الإعدادية أو الجامعية ويأخذ شهادته إلى حيثما يحصل على عمل. وهذا هو الإنسان المتعلم. اما الشخص الذي وصل إلى مرحلة الآيديولوجية فإنه يختار سبيله ومساره، وحياته، وتفكيره بنفسه، ويصنع نفسه بنفسه. لا يستسلم لما يقال في التلفزيون وفي المجلّات، ولا يسمح لها بصياغة شخصيته؛ لأنه في مثل هذه الحالة لن يتجرأ حتى على اختيار لون ثيابه. وهذا ما ينعكس بقوة على موضوع بحثنا، وهو الحجاب.

مسؤوليتنا

على الأب الذي يرغب في أن ترتدي ابنته الحجاب أن يبيّن لها اولاً الفارق بين الحجاب الموروث الذي اتخذ طابعاً خرافياً، وارتبط بصور من التعصب، وبات رهناً بمصالح طبقية وفئوية، وبين العودة إلى الحجاب كرمز لمجابهة الإمبريالية

الغربية، وحضارتها المفروضة، والثقافة التي يريدون إكراهنا عليها، وكأداة لمقاومة مؤامرة تحاك ضد البلدان الإسلامية منذ ستين سنة لتغييرنا ومسخنا وتزييفنا وقلب شخصيتنا. وان هدف هذا الحجاب يرمز إلى الإعتزاز بالذات والإعتزاز بالعقيدة والتمسك بالقيم. ولو أن الأب بيّن لابنته هذه المعاني فإنها لا تشعر ـ عند ارتداء الحجاب ـ بالمهانة والحقارة.

السيدة انديرا غاندي[1] لا تشعر بالحقارة والدونية عندما ترتدي الساري الذي يعود تاريخه إلى ثلاثة آلاف أو اربعة آلاف سنة، وتقابل فيه كبار قادة العالم، وتدخل فيه إلى هيئة الأمم المتحدة فينهض احتراماً لها خمسمائة مندوب ويصفقون لها نصف ساعة. ولكن لماذا لا تخجل ولا يعتريها شعور بالدونية عند ارتداء تلك الثياب؟ سبب ذلك هو انها لا تنظر إلى ذلك الساري بصفته زياً موروثاً عن جدّتها، وانّما تريد أن تقول من خلال ارتدائها لهذا الزي بأنّها قد اطلعت على شؤون الثقافة الغربية وشجونها، وعرفت ماذا تعني ملكة الجمال، وقرأت مجلات البوردا والباري ماتش[2] التي يريدون فرضها علينا، ومع ذلك فإنني اختار ارتداء هذا الزي. وهي تذهب في هذا

---

(١) انديرا غاندي: (١٩١٧ ـ ١٩٨٤) سياسية هندية، ابنة جواهر لال نهرو. رئيسة وزراء الهند. اغتالها متطرفون من طائفة السيخ. «الناشر».

(٢) مجلات فرنسية عن الموضة. «الناشر».

الزي إلى فرنسا، وألمانيا الغربية، ونيويورك، وديوان لاهاي، ومنظمة الأمم المتحدة، لتعلن للغرب بأنكم قد جئتم منذ قرنين وبذلتم جهوداً محمومة من اجل أن تصوغوا شخصياتنا على غرار شخصياتكم، إلّا انني جئتكم بمظهر المرأة الهندية الحديثة، جئتكم بهذا الزي لأقول لكم بأن كل مساعيكم قد ذهبت ادراج الرياح، وانني سأبقى أنا.

لا بدّ أن الفتاة التي تتفاخر بمواكبتها لآخر تقليعات الفتيات الغربيات وتتزين بآخر ما توصل إليه فن المرأة العصرية، تشعر بالدونية أمام اترابها من الفتيات اللائي رجعن إلى زيهن العقائدي والفكري عن وعي وارادة؛ لأنها تشعر بأنّها تعبت من تقليد الآخرين، وترى بأنها مجرد العوبة صنعها الآخرون، بينما الفتاة المحجبة تختار كل قراراتها بإرادتها.

وفي ضوء ذلك لو انكم عملتم على تغيير افكار الفتيات لسارعن إلى اختيار الحجاب من تلقاء انفسهن. لا داعي لأن تختاروه انتم وتلبسوه، وإنما الفتاة هي التي تختاره. ولو عملتم على ايجاد علاقة عشق بينها وبين هذا العالم لسارعت هي من تلقاء نفسها إلى الصلاة، ولا ضرورة عندئذ لايقاظها بالإكراه للنهوض إلى الصلاة.

أسئلة الحضور

س ـ وهنا اثير سؤال وهو: ما هو الحجاب الأصيل (الموروث) للمرأة الإيرانية؟

ج ـ هذه الأمور موجودة في متحف الفن والثقافة.

س ـ نرجوا أن تسلطوا الأضواء على هذه المسألة وهي أن الحجاب الأصيل (الموروث) للمرأة الإيرانية، ليس ذات الحجاب الذي ترتديه المرأة العربية. ولا ندري ان كان هو العباءة ام شيء آخر غيرها، أو هو المقنعة أو غيرها. لا أدري على وجه الدقة، واعتقد بعدم وجود ضرورة لإبقاء تلك الصور من الحجاب.

ج ـ نعم نحن لا نريد الحفاظ على شيء موروث. وما الموروث؟ «مداولات الخطوبة» شيء موروث، و«سكَّر الشعير» شيء موروث. ونحن لا نريد الاحتفاظ بامثال هذه الموروثات. وهل نحن مركز «الفن والثقافة» حتّى نهتم بحفظ هذه الأشياء ونبقي على الظواهر الموروثة من الماضين، ونصون التقاليد الجاهلية؟ ولكن الحجاب الذي ترتديه الفتيات لا يمثل عودة إلى التقاليد الموروثة البالية. بل هو تقدم على الحداثة، واستباق لكل ما هو حديث، وقفزة فوق درجات الإيمان والمسؤولية، وانتقال من مرحلة دراسية إلى مرحلة جهادية. هذا هو معنى

الحجاب. اما الحجاب الوطني التاريخي الموروث فلم يعد ذا نفع.

هل تعلمون كيف ظهر الحجاب في عهد الرسول (ص)؟ لم يأت الحجاب على هيئة خطاب إلى النساء: يا ايتها النساء استرن انفسكن من الرجال الأجانب. وانّما تبلور بصيغة توجّه فكري مغزاه انني أنا المرأة انتمي إلى هذا الفكر وأقف إلى جانب هذه الجماعة، واصطف ضمن هذا الخندق، ولن اكون فريسة لكم، ولا ألعوبة بأيديكم تضفون عليَّ ألواناً كيفما تشاؤون، وانا لست تمثالاً لعرض الأزياء. ومما يروى في هذا المعنى أن مسلمة ذهبت إلى سوق بني قُنيقاع لشراء ذهب، حيث كان سوق الذهب هناك (في المدينة المنورة كان باعة الذهب والتجار يهوداً). وكان إلى جانب متجر الصائغ كرسياً جلست عليه المرأة وراحوا يعرضون عليها الأقراط والأساور لتختار منها ما يحلو لها.

وبما أن المرأة كانت مسلمة، فقد جاء شبان يهود وأرادوا مضايقتها والعبث بها؛ لأن اليهود كانوا يبغضون المسلمين، فشدوا ذيل عباءتها بالجدار من غير أن تشعر. وما ان نهضت حتى سقطت عباءتها، فنادت: يا للمسلمين. فسمعها رجل مسلم كان ماراً من هناك، وسل سيفه وقتل الشخص الذي عبث بها.

فاجتمع اليهود وقتلوا عدداً من المسلمين. وتفاقمت الأزمة واعلن المسلمون الجهاد ضد بني قنيقاع وحاصروهم ووقعت المعركة، وجاء رؤساؤهم وطلبوا الصلح.

وطرحت بعد هذه الواقعة مباشرة قضية الحجاب. وقد روى ابو سعيد الخدري أحد أصحاب رسول الله (ص): «رحم الله نساء المدينة لما نزل هذا الأمر اصبحن وكأن على رؤوسهن الغربان» ولم يأبين الخروج بهذه الهيئة بل قبلن الأمر برحابة صدر. ويتضح من هذا الخبر انهن صرن يغطين ربع بدنهن بحيث ان ابا سعيد الخدري شبههن هذا التشبيه. فالعباءة العادية كانت معروفة لدى العرب وترتديها نساؤهم. إذاً ما هو الشيء الجديد في الأمر؟ ستر الرأس فقط.

س ـ هل الأحكام التي اصدرها محمد[١] في عهد الرسالة تتعلق أكثرها بظروف ذلك العصر وطبيعة الناس فيه، ام انها شاملة للأجيال الأخرى؟ فإن كان صدر حكماً حول الحجاب، هل ينبغي أن يبقى هذا الحكم إلى الأبد، فإذا كان قد أمر بالصلاة على هذا النحو وباللغة العربية، هل يجب أن نصليها بذلك الشكل وباللغة العربية بينما نحن نفهم الفارسية افضل من

(١) هكذا ورد السؤال بحرفيته في شريط تسجيل المحاضرة، ولأمانة النقل لم نتدخّل حتى بإعادة صياغته. «الناشر».

فهمنا للعربية؟ أو إذا اوجدت الدولة الإسلامية مؤسسات مهمتها استيفاء الضرائب من الناس، هل تكفي هذه الضرائب؟ أم يجب دفع الخمس والزكاة اضافة إلى الضرائب؟

ج ـ يفهم من كلامكم انكم تسألون هل الدين ثابت ام متغيّر؟ وذلك لأننا نلاحظ المجتمع متغيّر، وإذا بقي الدين ثابتاً فإنّه سيتخلف عن مواكبة حركة المجتمع؛ بمعنى أن هناك حاجات مستجدّة لا يتسنى للدين تلبيتها. وكذلك نلاحظ أن الدين يُلبي مسائل لا حاجة لنا بها في الوقت الحاضر. وهو يتضمن ايضاً احكاماً كانت تتطلبها الحياة آنذاك، ولا ضرورة لها في وقتنا الحاضر. فهل الدين أمر ثابت ام متغيّر؟

للإجابة عن هذا السؤال لا بدّ من معرفة المعنى المراد بالدين. الدين له ثلاثة أبعاد:

البعد الأول: هو رؤيتنا الكونية؛ ويشمل طبيعة نظرتنا إلى الإنسان والعالم والإنسان في هذا العالم، وكيف نفسّر ذلك وكيف ننظم الحياة وفقاً لتلك الرؤية، ولما نحيا ولأي هدف نعمل.

ومثلما أن الإنسان المادي لديه رؤية كونية، والإنسان الوجودي لديه رؤية من نوع آخر، نحن كذلك لدينا رؤيتنا الكونية. هذا عنصر في الدين ثابت لا يقبل التغيير ولكن يقبل

التكامل. مثلما أن الطبيعة ثابتة لا تتغير في حين تتغير وتتكامل معرفتنا لها، وهي التي تسمى بالعلوم الطبيعية.

ان الطبيعة ثابتة لا تتغير. وهل تغيرت قوانين الطبيعة منذ عهد ارسطو حتى الآن؟ في حين أن علم الطبيعة وهو علم الفيزياء وتطور وتكامل. إذاً العالم، والتوحيد، والطبيعة، والإنسان أمور ثابتة في الرؤية الكونية الإسلامية. اما نحن المسلمون فتتكامل معرفتنا للتوحيد والكون والإنسان في ضوء تكامل الفلسفة والعلم والمدنية والثقافة. ولهذا يجب أن افهم التوحيد والقرآن افضل من فهم الفيلسوف الذي كان يعيش في القرنين الأول والثاني. فأين إنسان ذلك الوقت من إنسان اليوم؟!

عندما يقول القرآن ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾(١) فإنني افهم هذا المعنى افضل مما يفهمه عالم القرن الثالث. وهذا امر طبيعي. لكن الرؤية الإسلامية للكون، والتوحيد الإسلامي، ومعرفة الكون والإنسان في الرؤية الإسلامية ثابتة لا تقبل التغيير؛ وذلك لأن المادية لا تقبل التغيير ايضاً. والإنسان المادي لا يقول اننا كنا في القرن التاسع عشر ماديين، إلّا اننا في القرن العشرين نصبح موحّدين بسبب تغيّر الأوضاع والأحوال، بل رؤيته في هذا المضمار ثابتة.

---

(١) سورة العلق، الآية: ٢.

العنصر الثاني: هو القيم الأخلاقية. فالقيم الأخلاقية التي يؤكد عليها الإسلام ثابتة، كالشجاعة، والكرم، وروح الإيثار، والجهاد في سبيل غايات إنسانية، وعدم الخضوع للظلم، وغير ذلك من القيم الإنسانية. فهذه الأمور ثابتة ولا يعتريها القِدَم، الا أن يصبح الإنسان نفسه قديماً وتنمحق صورته الإنسانية. فهل تتكامل هذه القيم بتكامل الإنسان ام انها تضمحل وتتلاشى. من الطبيعي انها تتكامل. إذاً القيم الأخلاقية الثابتة في الإسلام لا تزول بل بالعكس تتكامل مع تكامله. فعندما يقول القرآن الكريم: ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾[1] فهل يتجسد معنى هذه الآية بشكل اكبر في وقتنا الحاضر حيث يعيش ثلثا الناس في فقر؟ ام في ذلك العصر حين كان الناس يعيشون حياة ريفية بسيطة، ولم يكن للجوع وجود إلّا في القليل النادر؟ والشيء الذي ينبغي الإشارة إليه في هذا المجال هو أن الجوع غير ناجم عن الفقر. فحينما كان الفقر شائعاً حينذاك لم يكن للجوع وجود. والذين يعرفون طبيعة الحياة القروية والريفية يعلمون أن الجوع لا وجود له في القرية. فالإنسان الفقير يعيش شبعاناً على الدوام هو وأسرته بدجاجتين ونعجة.

قاطعه أحد الحاضرين: كان عدد السكان قليلاً.

الدكتور: والإنتاج كان قليلاً ايضاً، الإنتاج اليوم كثير،

(١) سورة الحاقة، الآية: ٣٤.

والثروة وفيرة. وهذا جاء نتيجة للتقدم العلمي. فالفلاح في الماضي كان يعمل ستّة اشهر وينتج كذا كمية من الحنطة. اما في الوقت الحاضر فيعمل ست ساعات وينتج مائة ضعف الإنتاج آنذاك.

في عالم اليوم تتوفر التقنية بقدراتها الهائلة. ولكن حيثما توجد التقنية يستفحل إلى جانبها الجوع. فمنذ أن دخلت التقنية إلى آسيا ازداد معها الجوع. وانتشر الجوع في قرانا منذ أن فتحت عينها على العصر الحديث. فهل تظنون أن الشخص الذي يركب سيارة ويمضغ شطيرته إنسان مرفّه؟ لا انه يعيش حالة من العوز والجوع لا يعيشها حتى القرويون لدينا الذين لا يملكون أكثر من دجاجتين. فالأول يقتطع من قوته ليسدد ما بذمته من اقساط السيارة بينما الثاني؛ أي الفلاح، ليس بذمته اقساط.

في هذا الوقت حينما تمدن الفلاح صار يبيع بيض دجاجته ليشتري الحلويات والمرطبات ومعجون الأسنان ومسحوق الغسيل. فإذا باع البيض لن يعد ا ،يه بيض يأكله. وبما انه اصبح بحاجة إلى النقود فإنه بدأ يبيع حليب بقرته إلى المقهى، ولا يشربه. في حين كان في الماضي يشرب الحليب. وصار ايضاً لا يأكل اللحم بل يبيعه للحصول على مالٍ يشتري به الثياب. وهكذا يظهر الفقر وتتسع مساحته. يمكنكم أن تقرأوا «جغرافية

الجوع» لجوزوي دوكاسترو، رئيس منظمة الغذاء الدولية، فهو الذي يصرّح بهذا الكلام. هذا الكلام ليس من عندي. وها هو اكبر مرجع علمي في عالم اليوم يقول بانه هو الذي اكتشف جغرافية الجوع.

اريد القول ان القيم الإنسانية ثابتة لا تتبدل. يبقى أمامنا الأحكام العملية للدين، وهذا موضوع حساس طبعاً. فلكل حكم بعدان: اولاً تقسم الأحكام إلى العبادات التي تمثل مسار بناء الإنسان، وتكامل قيمه، والعلاقة الواعية مع الله. وهذا امر غير خاضع للتبدل. وهو عبارة عن نظام يضم عبادات الصوم، والصلاة، والحج، وغيرها، بما تمثله من نظام مالي، أو رياضي لإعداد الإنسان وتغييره ثورياً. وعلى هذا الاساس فإن الأحكام المتعلقة بالله وببناء الذات لا ينبغي أن تخضع للتغيير، بل تتطور على قدر ما نتكامل.

س ـ هل الإرتباط بالله ينحصر في اطار الصوم والصلاة وسائر العبادات، ام يستطيع كل إنسان الإرتباط بالله عن أي طريق يشاء؟

ج ـ الإسلام نفسه يقول: «الطرق إلى الله بعدد انفس الخلائق» لكن هذا لا يعني أن كل إنسان يرتبط بالله كيفما يشاء.

هناك قضيتان يجب تلسيط الأضواء عليهما: احداهما قولنا

ان كل إنسان يستطيع الإرتباط بالله كيف يشاء وفي كل حال؛ في النوم واليقظة، أو عندما يكون جالساً أو راكباً أو ماشياً. وهذا يعني توسيع أشكال وآفاق الإرتباط بالله. إلّا أن الإسلام عين لنا نظاماً جماعياً مشتركاً لبناء ذاتنا، وهو أكثر فاعلية وتأثيراً من الأساليب الفردية الحرّة ـ التي يختار فيها كل شخص طريقته حسب ذوقه ـ وهذا اشبه ما يكون بمجاهدة العدو التي تعتبر من وظائف كل شخص، ويتعين على كل شخص محاربة عدو بلده. ولكن قد يقول قائل: حسناً، تعالوا إذاً نحل الجيش والقوات المسلحة ليقاتل كل شخص على حدة.

أحد الحاضرين: طُرحت على بساط البحث في بعض الدول مثل المانيا وبريطانيا وامريكا مسألة الخدمة حيث يرى البعض ان الدولة إذا دخلت في حرب مع دولة أخرى لا ينبغي إكراه الأشخاص الذين لا يرغبون في الحرب على المشاركة فيها.

الدكتور: هذا في حالة عدم قناعته بتلك الحرب، ولكنني طرحت رأيي اعلاه، على فرض اننا قانعون بالحرب[١].

---

(١) إلى هنا وينتهي شريط التسجيل (مؤسسة نشر آثار الدكتور شريعتي).

الفهرس